سلسلة الفوائد الذهبية
من سير أعلام النبلاء ٣

الأنصاف

سبيل للائتلاف واجتماع الكلمة

إعداد: عبيد بن أبي نفيع الشعبي

دار الوطن للنشر

سلسلة الفوائد الذهبية
من سير أعلام النبلاء

الإنصاف
سبيل للائتلاف واجتماع الكلمة

كتبه
عبيد بن أبي نفيع الشعبي

دار الوطن للنشر
الرياض ـ شارع المعذر ـ ص.ب: ٣٣١٠
☎ ٤٧٩٢٠٤٢ ـ فاكس: ٤٧٦٢٠٦٨

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾.

﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفسٍ واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إنّ الله كان عليكم رقيبا﴾.

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً﴾.

أما بعد:

فإن خير الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمدٍ صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

المقدمة

إن كتاب «**سير أعلام النبلاء**» للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ) من أجلّ وأعظم الكتب نفعاً وقدراً، كتاب تاريخ وتراجم، وأخلاق، ودعوة، وجهاد، وتهذيب، وعبادة، وعبر، وقدوات نقتدي بها.

شمل صدر الإسلام حتى نهاية القرن السابع تقريباً، عبر الأرض الإسلامية من شرقها إلى غربها لم يحدّ المؤلف مصراً ولا عصراً ولا مذهباً. كتاب استوعب معظم من نبل وبرز في أعين ناس وكان لهم أتباع يؤيدونهم وينتصرون لهم.

وقد عزمت منذ سنوات على تهذيب الكتاب وتقريب فوائده ودرره في أبواب علمية لعامة المسلمين وخاصة أبناء الدعوة الإسلامية كي يربطوا الحاضر بالماضي، ويتخذوا من عبر التاريخ وسننه مرجعاً لتقويم وتصحيح حاضرنا على ضوء ماضينا المشرق برجاله الأبرار من صحابة ومن تبعهم، وبذلك ندرك أسباب الانحراف، وظهور الفتن، برجالها الأشرار من مبتدعة وزنادقة ومن تبعهم، فنحذر من الوقوع فيها، ونتجنب أسبابها وأصحابها.

وبعد أن شرعت بالعمل علمت من بعض الأفاضل أن هذا الخير قد سبقني إليه آخرون. فدعوت لهم بالتوفيق وحسن الإخراج.

ولم أعلم من هم.

وفي أوائل هذا العام الهجري ١٤١٢ ظهرت بعض المختصرات، ولم تكن كما أردت فأسفت أني لم أستمر في ما شرعت سابقاً. وما هو إلا قليل حتى رأيت مهذباً رائعاً فتيًا يدل على أن صاحبه لديه من صفات حسن الإخراج والتصور مراتب عليا.. وكان المهذب بعنوان **(نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء)** للأستاذ محمد حسن عقيل موسى. فجزاه الله خيراً.

وقد بين في مقدمة مهذبه أسباب اختياره هذا الكتاب ومميزاته. فأحسن وأجاد. وكان من أروع وأفضل ما احتوى عليه المهذب هو فهارس للفوائد الموجودة في نزهة الفضلاء الذي هو مهذب سير أعلام النبلاء الغير متعلقة بالصنعة الحديثية ورجالها ودقائق العلوم الشرعية.

وهي فهارس نافعة للغاية تدل على حسن استنباط وفهم عند المهذِّب مع ما فيها من المشقة الذهنية في الاستخراج والترتيب.

ومع كل المجهود الذي يشكر عليه الأستاذ المهذب إلا أن ما كنت أرجوه سابقاً لم يتحقق بأكمله. إذ أن الهدف هو إخراج الفوائد وتقريبها كل مع ما يناسبه في أبواب علمية. لا الاكتفاء بالفهارس. إذ من سيصبر ويشحذ الهمة في جمع فوائد باب ما طبقاً لأرقام الفهرس الموزعة من كل جانب في ١٦٠٦ صفحة. مما يعني أن الفائدة التي

كنت أرجو أن تصلني وتصل الإخوة الدعاة من حولي والمسلمين عامة أصبحت ضئيلة جداً.

لذا استعنت بالله وتوكلت عليه بعزم أن أخرج فوائد سير أعلام النبلاء في أبواب علمية أجمع كل قريب إلى صاحبه في صورة علمية سلِسلة مرتبطة ببعضها البعض.

وبعد تدبر وجدت أن من الحفاظ على مجهود الأستاذ والاستفادة من عمله. الاعتماد على مهذبة **(نزهة الفضلاء)** وفهارسه توفيراً للجهد والطاقة والوقت وعدم تكرار الأعمال. خاصة أن مهذبه أتى على جلّ الفوائد تقريباً.

واستفدت من فهارسه وأضفت عليها الكثير مما لم يذكره الأستاذ في كل مجموعة من مجموعات الفوائد.

وجعلت هذا المشروع تحت عنوان «**سلسلة الفوائد الذهبية من سير أعلام النبلاء**» ولقد أخرجت ـ ولله الحمد والفضل والمنة أولاً وآخراً. أربعة أجزاء تحت الطبع وهي:

١ ـ **الإنصاف** سبيل للائتلاف واجتماع الكلمة.

٢ ـ **مع القرآن وحملته في حياة السلف الصالح.**

٣ ـ **أخبار النساء.**

مع متفرقات وفوائد وطرائف وعبر حول النساء والزيجات.

٤ ـ **الحقد الدفين** على العلماء والصالحين.

وقد اخترتها متنوعة لأهميتها من ناحية الموضوعات ومن أجل الاستفادة بعد نشرها من نقد القراء الكرام. لتحسين إخراج الأجزاء الأخرى إن شاء الله وفسح في العمر ويسر.

والآن: أشرع في بيان سبب إخراج هذا الجزء وعملي فيه.

الإنصاف
سبيلٌ للائتلاف واجتماع الكلمة

سبب إخراجه:

إن هذه التوبة والأوبة الإسلامية التي حملت على عاتقها إعادة الحياة الإسلامية نقية صافية من الشوائب التي علقت بالحياة الإسلامية عبر سنوات الانحراف، بحاجة ماسة، إلى الاستفادة من منهج أهل السنة والجماعة في التعامل مع أبناء الملة المسلمة كبيرهم وصغيرهم حفاظاً على مكونات ومقومات المجتمع الإسلامي ومرتكزاته وثوابته.

ولأن من مظاهر الانحراف الفوضى في التعامل مع الجهل والظلم الذي أدى للفتن والانشقاقات وتعميق أخاديد الاختلاف. كان لابد علينا أن نصوب هذا الانحراف الخطير. ونرسي دعائم العدل وحسن التعامل مع الآخرين كي نزيل أسباب الضغينة والحقد والحسد من قلوب المسلمين، ونرد ضالهم ومتعصبهم وجاهلهم

وظالمهم إلى الحق والعدل المبين.

فبالعدل وإعطاء كل ذي حق حقه وإنزال الناس منازلهم ومراتبهم واجتناب أسباب الظلم والجهل من ضيق الصدور والهوى والبغي والمبالغة وغيرها تصفو الحياة الإسلامية وتظهر معالم المحبة والأخوة الإسلامية الحقيقية التي هي مرتكز أساس في الحياة الإسلامية لا يقوم للأمة الإسلامية وكيانها قائمة بدونها.

ولما كان لنا في التاريخ الإسلامي وحياة السلف الصالح عبرة. تبين أهمية العدل والإنصاف وفسحة الصدور وأسباب الاختلاف وشروره. كان اختيار هذا الموضوع ـ **الإنصاف** ـ من كتاب سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي الحافظ العالم بالرجال وميزان الحكم عليهم وأحوالهم..

امتازت كتابته بالنقد للروايات.. والإنصاف العظيم لكل عَلَمٍ فما أحسن فيه أثنى عليه وبينه، وما أساء فيه حذر منه ودنسه، ووازن بينهما بالعدل والإنصاف ووضع كل علَمٍ في مرتبته ومنزلته دون محاباة أو تعصب أو إجحاف لحق اتباعاً لأمر الشارع الحكيم:

قال الله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قومٍ على ألّا تَعْدِلوا اعْدِلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إنّ الله خبيرٌ بما تعملون**﴾ [سورة المائدة، الآية: ٨٠].

وقوله تعالى: ﴿**ولا تبخسوا الناس أشياءهم**﴾ [سورة هود، الآية: ٨٥].

وبناءً على هذا الأمر العام الموجه لكل فردٍ من أفراد الأمة الإسلامية وجب على كل مسلم ذكرًا كان أو أنثى تابعًا أو متبوعًا شيخًا أو تلميذًا أن ينصف بالقسط والعدل الآخرين ولو اختلف معهم في لونٍ أو لسانٍ أو إقليمٍ أو مذهب أو مسألة اجتهادية مما يجوز الاجتهاد فيه.

وفي كتاب سير أعلام النبلاء كمٌّ وفيرٌ وهائلٌ من الإنصاف.. فلم يترك الذهبي عَلَماً إلّا وأنصفه بميزان الاعتدال ميزان الشرع الحنيف.

ومن أجل إظهار قواعد وضوابط الإنصاف، والاستفادة من تجربة الذهبي ومنهجه في الإنصاف الذي بناه على ما أمر الله سبحانه وتعالى به وفعله محمد ﷺ.. واتبعه الصالحون من بعده.

قمت بالعمل التالي:

(١) **أخرجت الشواهد والأحداث والأقوال** الدالة على الإنصاف من سير السلف الصالح.

(٢) **رتبتها ترتيباً** يساعد المرء على اكتساب صفة الإنصاف قدر المستطاع.

(٣) **ذكرت تعليقات الإمام الذهبي.**

(٤) **وضعت قدر المستطاع عنوانا** لكل شاهد كضابط من ضوابط الإنصاف أو نواقضه وتطبيقاته.

(٥) **علقت على بعض الشواهد** وعقبت على تعليقات الذهبي بما يربط اللاحق بالسابق، وبما يفيد المسلمين والدعاة منهم خاصة.

(٦) **لم أذكر كل شواهد إنصاف الأعلام** إذ أنها حوت جميع الأعلام تقريباً. واكتفيت بأهمها.

(٧) **ذكرت بعد المعايشة لفسحة الصدور** والإنصاف في حياة سير أعلام النبلاء.. ترجمة مختصرة لبعض الأعلام، ولم يكن لاختيارهم توجه معين أو تمذهب وإنما للفوائد التي ذكرها الذهبي في تراجمهم.

(٨) **تعمدت ذكر جزء من ترجمة كل علمٍ ذكر في هذا الجزء**، خاصة صفته ومؤهلاته وحياته ووقت مماته.. كي يعايش القارىء الأحداث بوضوح.

علماً بأن هناك رسائل معاصرة في هذا الباب يلزم القارىء الكريم مطالعتها مع هذا الجزء.. ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

* «**منهج أهل السنة والجماعة في تقويم الرجال ومؤلفاتهم**» للأستاذ أحمد الصويان.
* «**ضوابط رئيسية في تقويم الجماعات الإسلامية**» تأليف د.

زيد بن عبدالكريم الزيد.

* «**لحوم العلماء مسمومة**» للشيخ الداعية د. ناصر بن سليمان العمر.
* «**منهج أهل السنة والجماعة في النقد والحكم على الآخرين**» تأليف الأخ هشام بن إسماعيل الصيني.

ومنها ما ذكر مقتضباً خلال فصول بعض الرسائل.

* كرسالة «**نفائس الملة في التآخي والحلة**» و «**القيادة**» للأستاذ الداعية جاسم الياسين.
* ومقالة مطولة نافعة بعنوان «**وإذا قلتم فاعدلوا**» لعبد العزيز السعد نشرت في مجلة البيان العدد ٥، ٦ وتجد في رسائل الأُخوة ذكراً لإنصاف الإخوة.
* ومن أقدم من كتب في هذا الموضوع من المعاصرين الأستاذ أحمد محمد الراشد في كتابه «**العوائق**» وهو كتاب نافع للغاية.. وإن كان الكتاب موجه لفئة معينة.. إلا أن المرجو أن يكون هذا الكتاب والرسائل السابقة موجهة من الجميع للجميع لا لجماعة معينة ولا لطائفة بعينها بل للمسلمين كافة.

وهذا الجزء «**الإنصاف**...» من الجميع وللجميع وللكاتب قبل القارىء موجه لجميع الدعاة والطوائف لكل محسن وكل مقصر في جانب أو ضعيف في جانب آخر.

فاحرص أخي على دراسة الرسائل السابقة والنظر في النصوص الشرعية وفهم العلماء والسلف لها. . واحرص على نشر هذا المنهج بين إخوانك الدعاة.

وبعد ذكر رسائل من سبق من الأساتذة والدعاة والعمل المتواضع الذي قمت به في هذا الجزء هذا كشاف عام لما حواه هذا الجزء:

فلقد بدأته بالحث على فسحة الصدر وحلاوة الإنصاف **وأهميته في اجتماع الأمة كما يلي:**

* **فسحة صدور أهل الانصاف حلاوة الايمان.**
- حال الناس مع مخالفيهم.
- الاقتداء بفسحة صدور الصحابة.
- الصحابة أئمة في جمع الأمة.
- فسحة صدور العلماء مع اختلافهم في مسائل علمية.
- إنصاف التابعين لبعضهم البعض.
- على الإنصاف في كل شيء.
- من الإنصاف احترام ما عند الآخرين من أبواب الخير.
- الحسد عدو الإنصاف وفسحة الصدر.
- الحاسد يؤذي عباد الله بمالا يتصوره فسيح الصدر.

- الحظ يأتي من لا يأتيه .
- المنصف سابق للخيرات .
- ليس من الإنصاف سوء الظن بنصيحة الصالحين .
- اعـتراف العلماء بعلو مرتبـة بعضهم من الإنصاف وفسحة الصدور.
- من الإنصاف حسن التعامل مع الإخوة .
- من الإنصاف فسحة الصدر على جفوة النصيحة .
- ترك بعض الحظِّ على الكبار من فسحة الصدر وجمع الأمة .
- ليس من الإنصاف ازدراء الناس .
- ليس من الإنصاف الاستخفاف بالآخرين .
- من الإنصاف الدعاء للدعاة والعاملين للإسلام .
- المنصف يقول : اللهم اغفر لي ولإخواني ، ويصطلح معهم .

وبعدما فسحت صدورنا وتهيأت للإنصاف ذكرت :

* ميزان الإنصاف كي لا يظلم بعضنا بعضا.

- الصحابة رضوان الله عليهم أئمة الإنصاف والتقدير.
- هذا أمر الله . . فقراء وضعفاء المسلمين خير من أكابر وعظماء الضالين .

- إنما التفاضل بالأعمال الصالحة.
- إن هذا القرآن يرفع الله به أقواماً ويضع به آخرين.
- إن أكرمكم عند الله أتقاكم.
- ولا الانتساب إلى قبيلة أو عشيرة.
- خلاصة ميزان تعظيم الرجال وإنصافهم اتباع السنة والحديث.

نماذج على ذلك: الصابوني ثم ابن كلاب وأخيراً الحلاّج.

وبعدما أمنا بميزان الشارع الحكيم في رفع الناس بينت تفصيلاً لذلك وهو:

*** تفاوت المراتب وإنزال الناس منازلهم:**

- الصحابة في قمة المراتب.
- الصحابة فيما بينهم مراتب.
- بعض الأنصار أعلى مرتبة من بعض.
- فضل عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.
- إنزال الصحابة كل في منزلته.
- لا نعرف الناس إلا بأعمالهم.
- أتباع الصحابة على هذا النهج.
- بعضهم تعلو مرتبته بأن يجمع مراتب عليا لأئمة.

- رفع العلماء مراتب بعضهم البعض بالحق والعدل.
- الشعراء الصادقون على هذا النهج.
- مراتب الناس ثلاثة.
- الجاهل لا يعلم رتبة غيره.

ومن أجل أن لا يختل هذا الميزان ولا نسمح لأحد بالتعدي على مراتب الآخرين لنتأسى بالسلف في دفاعهم عن بعضهم البعض.

- معلم من معالم التربية النبوية.
- دفاع السلف عن بعضهم البعض.
- الدفاع عن خالد بن مهران.
- الدفاع عن وكيع بن الجراح لمراتٍ عديدة.
- الدفاع عن قبيصة بن عقبة.
- الدفاع عن عالم ابتلي في المحنة.
- الدفاع عن حافظ اتهم بالجهم.
- الدفاع عن الإمام الحجة في الحديث.
- الدفاع عن عالم اتهم من أجل نصرته لمذهب أهل السنة والجماعة.
- الدفاع عن إمام أخطأ في حق طالب علم إمام.
- حقائق حال الرجال أقوى من الكلام فيهم.

ثم نعلم نواقض الإنصاف ومنها:

كلام الأقران بعضهم في بعض لا يُعوَّل على كثير منه.

- صورة جميلة لحال الأقران المنصفين.
- صورة غير جميلة بين الأقران.
- كف من حظ خيرٌ من جراب من علم.
- الخلاف داخل مجموعة واحدة فيها أقران.
- بين السابق واللاحق من الدعاة والطوائف الإسلامية.
- هل كل كلام الأقران بعضهم في بعض لا يقبل؟
- الخلاف بين أهل المدن والجماعات والمذاهب.
- صور من السابق كأنك تراها اليوم.
- من الشيخ إلى التلاميذ.
- من نشأ في إقليم متعصب من أين يقع له الإنصاف؟
- تعصب علماء بلد لمذهب يخل في ميزان الإنصاف.

ومن نواقض الإنصاف:

المبالغة والمجازفة والفظاظة والهوى والبغي

- عدم إنصاف حال الناس وإخراج أحكام لا يقبلها منصف عاقل.
- من المجازفة انتقاص بعض العلماء ورفع مكانة الوضعاء من أهل بلده وجماعته.

- من المجازفة الحكم على الرجال بما يخالف أقوال الأئمة.
- مجازفات من البعض تتعجب كيف تلفظ بها صاحبها.
- من المجازفة المبالغة في المقارنة بين العلماء.
- لا ندري وزن الأعمال، إنما الله يعلم ذلك.
- من المجازفة المبالغة في تقديس الرجال وتعظيمهم.
- من المجازفة الكلام بهوى وبلا حجة.
- من المجازفة رد بعض النصوص لهوى أو شبهة.
- من المجازفة قلة ورع اللسان لهوى.
- هذا كلامٌ بهوى.
- من أحالك على غائبٍ لم ينصفك، فكيف بمن أحال على مستحيل؟

ضبط ألفاظ المبالغة والمجازفة

- ألفاظ ومواعظ مبالغ فيها.
- أعط القوس باريها.
- من الإنصاف الدقة في فهم الألفاظ والفروق.
- المبالغة في الانحراف عن بعض الحفاظ لهفوة ليس من الإنصاف.
- المبالغة في المعلومات والأرقام.
- ما يمكن تصوره لا يكون من المبالغات.

- لغة يفهمها المحدث.
- من الإنصاف عدم إعطاء بعض الكلمات أكثر من حجمها.
- من الإنصاف فهم سبب المبالغة في بعض التوجيهات.
- من الإنصاف الاعتدال في الطباع وعدم المبالغة فيها.
- من الإنصاف عدم المبالغة في تعميم طبع على إقليم أو فرد.

تطبيقات على الإنصاف

إنصاف من تلبس ببدعة أو خالف السنة

- التحذير من البدع والمبتدعة والاختلاط بهم.
- كان السلف شديدي الحذر من فعل عملٍ بدعي.
- أقوال للإمام مالك بن أنس تحث على اتباع السنة وهجر المبتدعة.
- الهوى مخرج البدعة.
- قاعدة في إنصاف من تلبس ببدعة وعدم الاقتداء ببدعته، وأمثلة على إنصاف من تلبس من العلماء ببدعة أو اتهم بها.
- هذا شيء قد سمح القول فيه.
- إنصاف من فيه تشيع يسير.
- إذا نشأ عالم في دولة ظالمة ذات بدعة ألا نتأول له؟ أمثلة على ذلك.

- الناس على دين الملك، وكذا أتباع الجماعات والفرق على دين أمرائهم.
- حادثة لعالم سني في إمارة أمير بدعي.
- هل من الإنصاف أن لا تبدأ القوم بما لا يعرفون؟
- من الإنصاف عذر العالم العامل إذا وقع في فتنة أو محنة.

التنطع في من له هفوة تخالف السنة ليس من الإنصاف:

- أمثلة على ذلك.
- ممن ندمت المشايخ على التفريط به.
- نعوذ بالله من الهوى والفظاظة.
- المبالغة والتشدد حتى تجاوز طريقة السلف ليس من الإنصاف.
- من الإنصاف ضبط التكفير وعدم الانشغال في ذلك وفتح بابه على كل هفوة.
- ألفاظ ومظاهر يشترك فيها أهل الحق مع مخالفيهم.
- قول حق ولكنه فج لا تحتمله نفوس كثير من متأخري العلماء.
- إنصاف مبتدع ذبّ عن الله.
- حتى من كفر ببدعة أنصفه الذهبي.
- لا يصح الاتكاء على الإنصاف في موالاة المبتدعة والمنفرين

من السنة وأهلها.

- حسن الإنصاف بتبرئة النبلاء مما افتري عليهم من ضلالات المبتدعة.

إنصاف علماء أخطأوا في غير العقيدة:

- تأويل أخطاء الأئمة في الفقه والحديث.
- من زعم أنه لا يكذب أبداً، فهو أَرْعَن!!
- من فيه آفة خلقية.
- التشهير بالألقاب.
- هل نطرح العالم لاتباعه قول مرجوح.
- إنصاف ملوك وأمراء الخلافة الإسلامية.
- إنصاف العالم الإمام في فن وإن قصر في فنون.
- ليس من جهل علماً حجة على من علمه.
- من جهل شيئاً عاداه.

عجائب وغرائب في تقبل الرجال:

- التكاثر على ابن طَبَرْزَد.
- الدَّوَاجِنيُّ فيه غُلوٌّ في التشيع.

إنصاف الكتب ومؤلفيها:

- كتاب «الغريب» لأبي عبيد.

«المدونة» لسحنون.

«نهج البلاغة» للمرتضى.

«الشفا» للقاضي عياض.

«التوحيد» لإمام الأئمة ابن خزيمة.

«تفسير أبي بكر القَفَّال الشَّاشي».

«حقائق التفسير» للسُّلمي.

«الحلية» لأبي نعيم.

«إحياء علوم الدين» للغزالي. وانظره في ترجمته آخر الكتاب.

تطبيق عام للإنصاف في التراجم.. أعلام منتقاة.

وبعد هذا الكشف السريع لموضوعات هذا الجزء تنبيه وتذكرة:

أذكر القارىء الكريم: بأنه من الإنصاف أن يراجع المرء نفسه بعد قراءة الجزء، وأن يظن أن الكلام موجه إليه لا لغيره. وأن لا يبرىء نفسه من التقصير وأن يحسب أن الآخرين من المسلمين خيرٌ منه عند الله تعالى.

والأمر الآخر وهو ما يغفل عنه بعض الأفاضل والشباب المتدين فضلاً عن عامة المسلمين..

أن هناك عدوًّا مبيناً، لا يعرف معنى للإنصاف ومنهجه العدول عن الحق والإفراط أو التفريط، ألا وهو الشيطان الرجيم فإن من

أعظم أسباب التفرق والتمزق وبث الفرقة والشقاق والخلاف الشيطان. ذاك الذي اتخذ ابن آدم عدوًّا حسدًا وكبرًا ولم ينصفه.

فالفرقة والخلاف وملء الصدور بالشحناء وضيق الصدر غاية من غاياته كما في الحديث الذي رواه مسلم ـ رحمه الله تعالى في صحيحه عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن إبليس يضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة فيجيء أحدهم فيقول فعلت كذا وكذا فيقول: ما صنعت شيئاً، قال: ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته، قال: فيدنيه منه ويقول نعم أنت**»، قال الأعمش: أراه قال: يلتزمه.

وقال تعالى: ﴿**إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون**﴾ [سورة المجادلة، الآية ١٠].

فاحذر يا عبدالله أن يستذلك الشيطان فهو للواحد أقرب منه للاثنين، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية، وإياك وأن تقع في شراكه وكلاليبه فتسلك سبيلاً غير سبيل المؤمنين.

قال تعالى: ﴿**يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة**﴾ [سورة الأعراف، الآية ٢٧].

وقال تعالى: ﴿**وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدّهم عن**

السبيل﴾ [سورة النحل، الآية ٢٤].

فاحذر يا عبدالله هذا الذي اتخذك عدوًا اتخذه عدوًا، قال تعالى: ﴿**إن الشيطان للإنسان عدوٌ مبين**﴾ [سورة يوسف، الآية ٥]. وقال تعالى: ﴿**إن الشيطان لكم عدوٌ فاتخذوه عدواً**﴾ [سورة فاطر، الآية ٦].

واحذر أن تقع في حبائله، وتخدعك ألاعيبه وزيفه مهما ضعف مظهر خداعه، ولا تجعل له منفذاً إليك وإلى إخوانك البتة.. وعلى الداعية والمسلم المنصف اتباع التوجيهات القرآنية والنبوية في التصدي للشيطان ومداخله قال تعالى: ﴿**وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبينا**﴾ [سورة الإسراء، الآية ٥٣].

وفي هذه اللفتة الربانية الكريمة العطوفة تنبيه مهم وهو أن الشيطان ينزغ بين عباد الله من خلال أفعالهم فلذا على المرء أن يتحفظ على كلماته ونبراته وأفعاله.. إلى أقصى درجة فلم يقل الله تعالى: يقولوا التي هي حسن، بل ﴿**التي هي أحسن**﴾. **فقد لا تقف الألفاظ الحسنة أمام نزغ الشيطان فلزم مجاهدة النفس وإرغامها على فعل الأحسن مهما بلغ الجهد والمشقة حفاظاً على الصف الإسلامي من نزغ الشيطان.**

فأدرك يا عبدالله خطورة الظلم وعدم الإنصاف فيما تقول..

واحرص إن كنت صادقاً على جمع الصف المسلم على ما يرضي الرب ويغضب العدو الشيطان الرجيم وذلك باتباع النبي الرحيم، والحذر من الأهواء والأدواء التي تخرجك عن سبيل رسولك الكريم.

هذا وأسأل الله العظيم أن ينفع بهذا الجزء وأن يجمع كلمة المسلمين ودعاتهم وجماعاتهم على الحق وأن يؤلف بين قلوبهم إنه جواد كريم.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على النبي الأمين..

وكتبه

عبيد بن أبي نفيع الشعبي

فسحة صدور أهل الإنصاف..
حلاوة الإيمان (١)

* الإنصاف عزيز.. والكمال عزيز

هذه قاعدة يحتاج المرء أن يقرّها في صدره، ولا يتصور أن الناس سينصفوه في جميع أموره، فيعتاد على فسحة صدره أمام ظلمهم وعدم إنصافهم.

قال داود بن يزيد، سمعت الشعبيَّ يقول: والله لو أصبتُ تسعاً وتسعين مرة، وأخطأتُ مرَّة لأعدُّوا عليَّ تلك الواحدة.

والناس عموماً لا يحبون من يشغب عليهم، ويكثر من نصحهم ونقدهم فإن كنت داعية هماماً نشيطاً تنصح هذا وذا، فتأكد من أن بعض الناس سيتذمر منك ولا ينصفك، فلا تبتئس، واجعل في صدرك فسحة لعدم إنصافهم، فعند الله العدل والقسط والأجر الحسن.

أما إن أردت السلامة وإرضاء الناس بسخط الله، ورأيت بعض من حولك يثني الناس عليه دوماً لسكوته عليهم، وعدم نصحه

(١) سمّاها سيد قطب رحمه الله. أفراح الروح انظر رسالته القيمة أفراح الروح. تنتفع بها.

إخوانه وتذكيرهم، واعتماده على حثهم على فعل المعروف دون إنكار المنكر الذي هم عليه ـ هذا إن فعل ـ فلا تبتئس، واجعل في صدرك فسحة، فلديه لون من ألوان السلبية وأنت امرؤ إيجابي فعّال، وأجرك عند الله لا عند الناس. وهو ممن يستحق النصيحة، كي يحسن النصح للناس، فإن لم يتقبل فلا تبتئس وادع له بالصلاح.

[الثـــــوري]

عن يحيى بن المتوكل: قال سفيان: إذا أثنى على الرجل جيرانه أجمعون، فهو رجل سوء، لأنه ربما رآهم يعصون، فلا ينكر، ويلقاهم ببشر.

وقال أحمد بن حرب الإمام القدوة، شيخ نيسابور (المتوفى سنة ٢٣٤): **عبدتُ الله خمسين سنة، فما وجدت حلاوة العبادة حتى تركتُ ثلاثة أشياء: تركت رضى الناس حتى قدرت أن أتكلم بالحق، وتركتُ صحبة الفاسقين حتى وجدت صحبةَ الصالحين، وتركت حلاوةَ الدنيا حتى وجدت حلاوة الآخرة.**

ولقد شعر ميمون بن مهران أن بعض إخوانه لا ينصح نصحاً شافياً وافياً خوف جرح شعوره فيما يظن. فبعض الإخوة لا يتجرأ على نصح أخيه، خوف أن يمقته أخوه ويكرهه، وبعض الدعاة لا يتجرأ على نصح أهل بلده بالحق، ويسير في ركابهم ببعض ما يشتهون خوفاً أن ينفضوا من حول جماعته وحزبه وشخصه من أجل هذا ومن أجل

إنصاف نفسه ونصحها طلب هذا المطلب الذي يتحلى به المنصفون، ولا يستسيغه الاخرون.

عن جعفر بن بُرْقان: قال لي ميمون بن مهران: ياجعفرُ قُلْ لي في وجهي ما أكرهُ، فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما يكره.

وإذا عرفت أن الناس لا ينصفون ويعيرون من أخطأ فاستمسك بهذه النصيحة، كي تساعدك على فسح صدرك.

روى أبو المليح: عن ميمون: مَنْ أساء سِرًّا فليتُبْ سِرًّا، ومَنْ أساء علانية، فليتُب علانية، فإن الناس يُعيِّرون ولا يغفرون، والله يغفرُ ولا يعيِّر.

وقدم الفضيل بن عياض نصيحة أخرى تدعوك أن لا تبالي بمن ذمك ومن مدحك ـ من غير أهل الإنصاف، في درب الدعوة ـ من عامة الناس أو ممن سار على درب الدعوة لكنه تلبس ببدعة أو هوى، فافسح صدرك.

قال فيض بن وثيق: سمعت الفضيل يقول: إن استطعت أن لا تكون محدثاً ولا قارئاً، ولا متكلماً، إن كنت بليغاً، قالوا ما أبلغه، وأحسن حديثه، وأحسن صوته، فيعجبك ذلك، فتنتفخ، وإن لم تكن بليغاً، ولا حسنَ الصوت، قالوا: ليس يُحسن يحدِّث، وليس صوته بحسن، أحزنك ذلك، وشقَّ عليك، فتكون مرائياً، وإذا

جلست، فتكلمت، فلم تُبَالِ مَن ذمك ومن مدحك، فتكلّم.

وروى العتبيُّ قال: قيلَ لمعاوية: أسرعَ إليك الشَّيبُ، قال كيف لا، ولا أعْدَمُ رجلاً من العرب قائماً على رأسي يُلقح لي كلاماً يُلزِمُني جوابه فإن أصبْتُ لم أُحْمد، وإن أخطأتُ سارت به البُرُد.

ومع كل ما يفعله العامة والآخرون من عدم الإنصاف فعليك بالاقتداء بالصحابة والسلف الصالح في سلامة فسح الصدر:

● فسحة صدور الصحابة وإنصافهم:

كسلامة صدر أبي دجانة الأنصاري رضي الله عنه:

قال زيدُ بن أسلم: دُخل على أبي دُجانة وهو مريض، وكان وجهه يتهلَّل فقيل له: ما لوجهك يتهلَّلُ؟ فقال: ما مِن عملِ شيء أوثق عندي من اثنتين: كنتُ لا أتكلَّم فيما لا يعنيني، والأخرى فكان قلبي للمسلمين سليما.

فلا تتكلم فيما لا يعنيك كي لا تلقى مالا يرضيك فيضيق صدرك.

وفسحة صدر علي رضي الله عنه:

عن عاصم بن كُليب، عن أبيه: قال: انتهينا إلى عليٍّ رضي الله عنه، فذكر عائشة، فقال: خليلةُ رسول الله ﷺ.

قال الذهبي: وهذا يقوله أمير المؤمنين في حق عائشة مع ما وقع بينهما فرضي الله عنهما.

وكان من فسحة صدره رضي الله عنها: أنه وقف على خباء عائشة يلومها على مسيرها. فقالت: يا ابن أبي طالب، مَلَكتَ فَأَسْجِحْ[1]، فجهزها إلى المدينة وأعطاها اثني عشر ألفاً فرضي الله عنها.

وليس هذا الدرس الوحيد الذي يعلمنا فيه علي رضي الله عنه الإنصاف فله دروس أخرى كثيرة منها:

* فسحة صدر وإنصاف الزوجين لبعضهما البعض:

عن زكريا بن أبي زائدة: سمعتُ عامرًا يقول: تزوج عليٌّ أسماءَ بنت عُميس. فتفاخر ابناها: محمد بن أبي بكر، ومحمد بن جعفر، فقال كلٌّ منهما: أنا أكرم منك، وأبي خيرٌ من أبيك.

قال: فقال لها عليٌّ: اقضي بينهما. قالت: ما رأيتُ شابًّا من العرب خيرًا من جعفر، ولا رأيتُ كهلاً خيرًا من أبي بكر.

فقال عليٌّ: من تركت لنا شيئاً، ولو قُلتِ غير الذي قلتِ لمقتُّك.

قالت: إنَّ ثلاثة أنت أخسُّهم خيار.

ولغة الإنصاف هذه التي تعلمتها أسماء بنت عميس رضي الله عنها من المهاجرات الأول، ومن أسلم قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم ليست بالغريبة عليها. وقد تكون تعلمت الإنصاف من مثل هذا الموقف الذي أنصفها فيه رسول الله ﷺ.

(١) أي قدرت فسهل وأحسن العفو، وهو مثل سائر.

عن الشعبي قال: قدمت أسماء من الحبشة، فقال لها عُمر: يا حَبشية، سبقناكم بالهجرة.

فقالت: لعمري، لقد صدقْتَ: كُنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم، ويعلم جاهلكم، وكنا البعداء الطرداء. أما والله لأذكرن ذلك لرسول الله. فأتته. فقال: «**للنَّاس هجرةٌ واحدةٌ، ولكم هجرتان**».

ولامرأة أخرى موقف إنصاف عظيم وفسحة صدر عجيبة ألا وهي عائشة رضي الله عنها أم المؤمنين مع معاوية بن حديج رضي الله عنه: الأمير، القائد، له صحبة ورواية قليلة عن النبي ﷺ.

* فسحة صدر أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها:

عن عبدالرحمن بن شماسة قال: دخلت على عائشة، فقالت: ممن أنت؟ قلتُ: من أهل مصر. قالت: كيف وجدتم ابن حديج في غزاتكم هذه؟ قلتُ خير أمير، ما يقف لرجل منا فرس ولا بعير إلاَّ أبدل مكانه بعيرًا. ولا غلام إلا أبدل مكانه غلامًا. قلت: إنه لا يمنعني قتله أخي أن أحدثكم ما سمعت من رسول الله ﷺ، إني سمعته يقول: «**اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به، ومن شق عليهم فاشقق عليه**».

وإنك لتعجب من إنصاف هؤلاء الصحابة وفسحة صدورهم، فمن من الدعاة أصابه ما أصابهم من رفع السيوف على بعضهم

بعضًا!!، وقتل أرحامهم ثم من بعد ذلك ينصف بعضهم بعضًا!!

وإنك لتعجب من بعض الدعاة يضيق صدره على أخطاءٍ باهتة وقعت من إخوانه، ولا ينصفهم، أفلا نقتدي بهؤلاء الصحابة أصحاب الهموم الكبيرة والآمال العالية النافعة والقلوب الصافية السليمة التي توجهت بما فيها للرحمن الذي يؤتي الملك من يشاء.

*** الصحابة أئمة في جمع الأمة:**

وللصحابة مواقف تبين عظم فسحة صدورهم فيما بينهم، قال ابن الكبير الفقيه: الأمين يتفهم أهمية جمع الصحابة، واستيعاب أفعال اللاحق المتأخر في إسلامه مع أنه هو الأقدم والأعلم والأفقه.

*** أبو عبيدة بن الجراح أمين هذه الأمة:**

قال موسى بن عقبة في (مغازيه): غزوة عمرو بن العاص هي غزوة ذات السلاسل من مشارف الشام فخاف عمرو من جانبه ذلك فاستمد رسول الله ﷺ، فانتدب أبا بكر وعمر في سراة المهاجرين فأمَّر نبي الله عليهم أبا عبيدة فلما قدموا على عمرو بن العاص قال: أنا أميركم فقال المهاجرون: بل أنتَ أمير أصحابك وأميرنا أبو عبيدة. فقال عمرو: إنما أنتم مَدَدٌ أمددتُ بكم. فلما رأى ذلك أبو عبيدة بن الجراح وكان رجلًا حسن الخلق، ليِّن الشِّيمَةِ، متَّبعًا لأمر رسول الله ﷺ وعهده، فسلَّم الإمارة لعمرو.

وكان أبو عبيدة موصوفاً بحسن الخلق، وبالحلم الزائد

والتواضع.

وقال ثابت البناني: قال أبو عبيدة: يا أيها الناس! إني امرؤ من قريش، وما منكم من أحمر ولا أسودَ يفضلني بتقوى، إلا وددت أني في مسلاخه!!.

ومن المواقف التي تجعلك تحرص على الاقتداء بأبي عبيدة رضي الله عنه:

لما تفرّغ الصديق من حرب أهل الردة، وحرب مُسيلمة الكذاب جهّز أمراء الأجناد لفتح الشام. فبعث أبا عبيدة، ويزيد بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، وشرحبيل بن حسنة، فتمت وقعة أجنادين بقرب الرملة، ونصر الله المؤمنين، فجاءت البشرى، والصديق في مرض الموت، ثم كانت وقعة فِحْل، ووقعة مرج الصُفَّر، وكان قد سير أبو بكر خالداً لغزو العراق، ثم بعث إليه ليُنجِدَ من بالشام، فقطع المفاوز على برية السماوة، فأمَّره الصديق على الأمراء كلهم، وحاصروا دمشق، وتوفي أبو بكر. فبادر عمر بعزل خالد، واستعمل على الكلِّ أبا عبيدة، فجاءه التقليد، فكتمه مدة، وكل هذا من دينه ولينه وحلمه، فكان فتح دمشق على يده، فعند ذلك أظهر التقليد، ليعقد الصُلح للروم، ففتحوا له باب الجابية صلحاً، وإذا بخالد قد افتتح البلد عنوةً من الباب الشرقي، فأمضى لهم أبو عبيدة الصلح.

*** عبدالرحمن بن عوف جامع أهل الشورى رضي الله عنه :**

من أفضل أعمال عبدالرحمن عزله نفسه من الأمر وقت الشورى. واختياره للأمة من أشار به أهل الحل والعقد، فنهض في ذلك أتم نهوض على جمع الأمة على عثمان، ولو كان محابياً فيها، لأخذها لنفسه، أو لولاها ابن عمه وأقرب الجماعة إليه سعد بن أبي وقَّاصٍ.

*** الحسن مصلح خلاف الأمة :**

قال أبو بكرة: رأيت رسول الله ﷺ على المنبر والحسن إلى جنبه وهو يقول: «**إن ابني هذا سيِّد. ولعلَّ الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين**».

قال الذهبي: جعله سيداً على رغم أنف كل جاهل، وأي سؤدد أعظم من أنه بويع بالخلافة، ثم نزل عن الأمر لقرابته، وبايعه على أنه ولي عهد المؤمنين، وأن الخلافة له من بعد معاوية حسماً للفتنة، وحقناً للدماء، وإصلاحاً بين جيوش الأمة ليتفرغوا لجهاد الأعداء، ويخلصوا من قتال بعضهم بعضا، فصحّ فيه تفرس جده ﷺ، وعُدّ ذلك من المعجزات، ومن باب إخباره بالكوائن بعده، وظهر كمال سؤدد السيد الحسن بن عليٍّ ريحانة رسول الله ﷺ وحبيبه، ولله الحمد.

عن الشعبي، أن الحسن خطب، فقال: أن أكْيَسَ الكَيْس

التقى وإن أحمق الحمق الفجور. ألا وإن هذه الأمور التي اختلفت فيها أنا ومعاوية، تُركَت لمعاوية؛ إرادة إصلاح المسلمين وحقن دمائهم.

فرحم الله أصحاب هذه الصدور العامرة بالإيمان وحلاوته، ورزقنا اللحاق بهم، وحبب لعلمائنا ودعاتنا والمسلمين الاقتداء بهديهم.

إنصاف العلماء بعضهم البعض مع الخلاف في مسائل علمية:

واستفاد السلف الصالح من فسحة صدور الصحابة وكرههم للاختلاف، فتعاملوا بقاعدة أن الخلاف لا يفسد للود قضية في المسائل الفرعية.

فأنصف بعضهم بعضًا ولو اختلفوا في أكثر من مسألة فرعية، وبقيت المودة وحسن التعامل، لما تحلى به المخطىء من تتبع السلف والحرص على الحق وموافقته له في المسائل الأخرى..

● إنصاف التابعين:

قال أبو بكر بن عياش عن عاصم: كان أبو وائل عثمانيًّا وكان زرُّ بن حبيش علويًّا، وما رأيت واحداً منهما قط تكلم في صاحبه حتى ماتا. وكان زرٌّ أكبر من أبي وائل، فكانا إذا جلسا جميعاً، لم يحدث أبو وائل مع زر - يعني يتأدب معه لِسِنِّه -.

عن الأعمش قال: أدركت أشياخنا زرًّا وأبا وائل، فمنهم من عثمان أحب إليه من عليّ، ومنهم من عليّ أحب إليه من عثمان. وكانوا أشد شيء تحابًّا وتوادًا.

هكذا أهل الإنصاف لا يضخم أحدهم الخلاف في مسائل الفروع، ويكون مع أخيه أشد شيءٍ تحابًّا وتوادًا.

وهذه الصفة من صفات عبدالله بن المبارك رحمه الله تعالى فقد:

اجتمع جماعة مثل الفضل بن موسى، ومخلد بن الحسين، فقالوا: تعالوا نعد خصال ابن المبارك من أبواب الخير، فقالوا: العلم، والفقه، والأدب، والنحو، واللغة، والزهد، والفصاحة، والشعر، وقيام الليل، والعبادة، والحج، والغزو، والشجاعة، والفروسية، والقوة، وترك الكلام فيما لا يعنيه، والإنصاف، وقلة الخلاف على أصحابه.

وهذه الصفة الأخيرة تدل على فسحة صدره رحمه الله تعالى مع حرصه على النصح والجهاد والدعوة إلى الله، وإنصاف من خالفه من أصحابه ولا غرابة في ذلك فهو الذي سطر لنا قاعدة إنصاف مما استفاده من القرآن والسنة وحياة من سلفه فقال:

إذا غلبت محاسن الرجل على مساوئه لم تذكر المساوىء، وإذا غلبت المساوىء على المحاسن لم تذكر المحاسن.

فأنصف الرجل وأنصفنا من حيث أن لا نذكر محاسن من غلبت

مساوئه وعمّ ضررها كي لا يغتر به الجاهل، ويتكىء عليها المبتدع أو المنافق الزنديق. فيوسع هوة الخلاف بين العلماء والأمة.

ولقد كان علماؤنا أشد الناس كرهًا للخلاف بصورة تتعجب منها.. وتدرك بها مدى فسحة صدورهم، وحلاوة الأخوة الإيمانية بينهم.

قال الفلّاس: رأيت يحيى يوماً حدَّث بحديثٍ، فقال له عفَّان: ليس هو هكذا. فلما كان من الغد أتيت يحيى، فقال: هو كما قال عفَّان، ولقد سألت الله أن لا يكون عندي على خلاف ما قال عفان.

قال الذهبي: **هكذا العلماء، فانظر يا مسكين كيف أنت عنهم بمعزل.**

وتمعن في المشهد الذي لا يستسيغه البعض، كيف أن العلماء الفقهاء استساغوه خوف الخلاف وتفرق الناس على سنة من السنن النبوية خاصة إذا لم يعتد أهل بلاد على فعلها.

قال أبو عمرو المستملي: سمعت محمد بن رافع يقول: كنت مع أحمد وإسحاق عند عبد الرزاق، فجاءنا يوم الفطر، فخرجنا مع عبدالرزاق إلى المصلى، ومعنا ناس كثير، فلما رجعنا، دعانا عبد الرزاق إلى الغداء، ثم قال لأحمد وإسحاق: رأيت اليوم منكما عجباً، لم تكبرا، فقال أحمد وإسحاق: يا أبا بكر، كنا ننتظر هل تكبر، فنكبر، فلمَّا رأيناك لم تكبر، أمسكنا، قال: وأنا كنتُ أنظر إليكما، هل

تُكبِّران فأُكبِّر!!.

هؤلاء هم العلماء المنصفون الذين يحترم كل منهم ما لدى الآخر من علم واتباع لما بلغه من السنة.

وهذا النص الذي سنذكره عن الإمام أحمد بن حنبل يكتب بماء الذهب وينقش على القلوب، وتتلفظ به الألسنة الطيبة عند كل خلافٍ في سنة فرعية أو في أشياء لا تخالف صريح الأصول ومنهج أهل السنة والجماعة.

قال أحمد بن حفص السعدي، شيخ ابن عدي: سمعت أحمد بن حنبل يقول: لم يَعْبُرِ الجسر إلى خُراسان مثل إسحاق، وإن كان يُخالفنا في أشياء، فإن الناس لم يزل يُخالِفُ بعضهم بعضاً.

* على الإنصاف في كل شيء:

وهذا مشهد تحاور ونقاش مليء بالإنصاف وفسحة الصدور لا يقدر على مثله وتقبل نتائجه إلا من صدق اللهجة وراقب الله ورضي بما قسم.

عن ابن عبدالحكم: سمعتُ الشافعيَّ يقول: قال لي محمد: أيهما أعلمُ صاحبنا أم صاحبكم؟ يعني أبا حنيفة ومالكاً: قلتُ: على الإنصاف؟ قال: نعم. قلت: أنشدك الله، من أعلم بالقرآن؟ قال: صاحبكم. قلتُ: من أعلمُ بالسنة؟ قال: صاحبكُم. قلتُ: فمن أعلم بأقاويل الصحابة والمتقدمين؟ قال: صاحبكم.

قلتُ: فلم يبق إلا القياس، والقياسُ لا يكون إلا على هذه الأشياء، **فمن لم يعرف الأصولَ، على أي شيء يقيس؟**

قال الذهبي: وعلى الإنصاف، لو قال قائلٌ: بل هما سواءٌ في علم الكتاب، والأول، أعلم بالقياس، والثاني: أعلمُ بالسنة، وعنده علم جَمٌّ من أقوال كثير من الصحابة، كما أن الأول أعلمُ بأقاويل عليٍّ، وابن مسعود وطائفة ممن كان بالكوفة من أصحاب رسول الله ﷺ، فرضي الله عن الإمامين، فقد صرنا في وقتٍ لا يقدر الشخص على النطق بالإنصاف، نسأل الله السلامة.

فرحم الله الإمامين محمد بن الحسن والشافعي، على إنصافهما. ورحمة الله الإمام الذهبي الذي زاد إنصافهما إنصافاً، فهل اقتدى بهم دعاتنا وعلماؤنا، ومن تبعهم من شباب الصحوة وعامة الناس. فنناشدكم بالله على الإنصاف وعلى الصدق فيه كما صدق محمد بن الحسن والشافعي.

فلا تبخسوا جهود بعضكم بعضًا، فمنكم من جاهد وعذب وشرد لعشرات السنين، ومنكم من علّم وفقّه وبصّر الأمة لعشرات السنين، ومنكم من وعظ وذكر وخطب لعشرات السنين، ومنكم من لاحق أصحاب المنكر ونهى عن المنكرات وأمر بالمعروف لعشرات السنين، ومنكم من صنف وألف وحقق لعشرات السنين.. وما شهدنا منكم جميعاً إلا دفاعاً عن الإسلام وجهاداً بالبنان واللسان

والقلم واستشهاداً في سبيله، وشهدنا أن سبب تطليق الشباب التائب للدنيا وزينتها ومغرياتها ومفاسدها هو الإسلام ونصرته ورفع راياته وترك المحرمات. فلا تبحثوا عن كل صغير وكبير من الأخطاء ولا تبخسوا كل مجهود صغير أو كبير ولا تحتقروا أفعال بعضكم البعض.

ولا يقولن أحد إنه هو الفطن الكيس الفقيه العالم وغيره من أصاب الأمة بالنكبات والانحرافات.

ولا يقولن أحدٌ إنه هو الذي نجح في دعوته وقطف الثمار وغيره فشل في كل دعوته ولم يجن سوى السراب.

فالجميع أثمر وأنتج للدعوة، ولا يخلو أحد من الاستفادة من الآخر بطريق مباشر أو غير مباشر، ولا يخلو أحد من الفشل في جانب كبير عند البعض وفي جانب صغير عند الآخرين..

وعلى الإنصاف الدعوي من كان لديه فسحة صدر واتباع لمنهج أهل السنة والجماعة والاعتراف والاستفادة مما عند الآخرين على اختلاف أساليبهم ومناهجهم مع الإنصاف واجتناب أخطائهم وعدم الإصرار على الأخطاء مع الحرص على جمع هذه الأمة فله من الله القبول في السماء والأرض وله منا الدعاء والشكر، فهلا كنا جميعًا على هذا الدرب.

من الإنصاف احترام ما عند الآخرين من أبواب الخير:

المسلم المنصف يدرك جيدًا أن بعض الناس قد يفتح الله عليه

بابا من أبواب الخير دون غيره فيمتاز به.. حتى أنك تجد البعض يوصف بالصوّام أو الفارس أو الزاهد أو العالم لغلبة هذا الأمر عليه، وعدم القدرة على جمع أكثر من باب خير لكن البعض قد يرى أن ماهو عليه خير مما عليه الآخر، باجتهاد، وقد يكون الجميع على مستوى واحدٍ من الخير. وقد يفتح على البعض أكثر من باب من أبواب الخير. وذاك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وهذا خطاب للإمام مالك كتبه ردًّا على خطاب أحد أقرانه. احفظه جيدًا كما حفظه ابن عبدالبر فقد تحتاجه يوماً من الأيام كي تعلم من لم ينصفك الإنصاف وفسحة الصدر.

قال الذهبي:

قال الحافظ ابن عبدالبر في «التمهيد» هذا كتبته من حفظي، وغاب عن أصلي: أن عبدالله القمري العابد كتب إلى مالك يحضه على الانفراد والعمل.

فكتب إليه مالك: إن الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فرب رجل فتح له في الصلاة، ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الصدقة ولم يفتح له في الصوم، وآخر فتح له في الجهاد. فنشر العلم من أفضل أعمال البر، وقد رضيت بما فتح لي فيه، وما أظنُّ ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر.

هذا الدرس وغيره ما أحوج الدعاة لتفهمه ومدارسته، فكما

يتوجه بعض الدعاة إلى باب من أبواب الخير، قد تمتاز جماعة بباب آخر من أبواب الخير حسب توجه علمائها وقادتها، مع امتياز بعض أفرادها في أبواب خير أخرى.

ومن حُرم باباً من أبواب الخير فليسع أن يتمسك بباب خير آخر بصدق وسيجد الرضا والاطمئنان في صدره.. ومن ضاق صدره على ما عند الآخرين من خير فلينصف نفسه فلن يجني إلا الكدر والحقد والحسد.

واعلم أن أي باب خير واسع جدًّا فالتمس منه ما تستطيع، ولن تحتويه كله.. وقد تخطىء في بعضه.. كما قال الذهبي عن العلم في معرض كلامه أن لبعض العلماء أخطاء يعلمها تلاميذه وأتباع مذهبه.

فالعلم بحر بلا ساحلٍ، وهو مفرّق في الأمة موجود لمن التمسه.

الحسد عدو الإنصاف وفسحة الصدر:

لاشك أن الحسدَ من مداخل الشيطان بين المسلمين، ومن اتصف به يستحيل أن ينصف الآخرين، فاحذر من هذه الآفة ولا تكن من أهلها الذين يتقولون على الآخرين بما ليس فيهم حسداً من عند أنفسهم.

قال الخلّال: بلينا بقومٍ جهال، يظنون أنَّهم علماء، فإذا ذكرنا

فضائل أبي عبدالله، يخرجهم الحسد، إلى أن قال بعضهم فيما أخبرني ثقة عنه: أحمد بن حنبل نبيهم!!

ومثلها اتهام علماء بإخراج مذاهب جديدة، ودعوة الناس للالتفاف حول أقوالهم فقط، واتهام أفراد بإنشاء جماعات حزبية، واتهام جماعات بالانتساب إلى مذاهب خاطئة لموافقتها في بعض الأساليب أو المسميات أو الاستفادة من كتابات شيوخ جماعات أخرى.

*** الحاسد يؤذي عباد الله بما لا يتصوره فسيح الصدر.**

كما حدث لأحمد بن حرب: رغب الناس في سماع كتبه، ثم إن أمه ماتت سنة عشرين ومئتين فحج، وعاود الغزو، وخرج إلى بلاد الترك، وافتتح فتحاً عظيماً، غُبط به فسعى به الأعداء إلى ابن طاهر، فأحضره، ولم يأذن له في الجلوس وقال: أتخرج وتجمع إلى نفسك هذا الجمع، وتخالف أعوان السلطان؟ ثم إن ابن طاهر عرف صدقة، فتركه، فسار، وجاور بمكة. وكان تنتحلُه الكرَّامية، وتعظمه لأنه أستاذ محمد بن كرام، ولكنه سليم الاعتقاد بحمد الله.

وكما حدث لابن الأبار الإمام العلامة البليغ الحافظ المجودُ المقرىء مجد العلماء أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القُضاعيّ الأندلسي المولود سنة ١٠٥.

انتقل من الأندلس عند استيلاء النصارى، فنزل تونس مدة،

فبلغني أن بعض أعدائه شغب عليه عند ملك تونس، بأنه عمل تاريخاً وتكلم في جماعة، وقالوا: هو فضوليٌّ يتكلم في الكبار، فأخذ، فلما أحس بالتلف قال لغلامه: خذ البغلة لك، وامض حيث شئت، فلما أدخل، أمر الملك بقتله، فنعوذ بالله من شر كل ذي شر.

وكان مصرعه عام ٦٥٨ بتونس رحمه الله تعالى. فلا داعي يا عبدالله للحسد وافسح صدرك فهذا فضل الله يؤتيه من يشاء. والله يرزق من عباده من يشاء بغير حساب العلم أو العمل أو المال أوغير ذلك..

فكل ميسر لما خلق له، وقد يبتلي الله الكبير العالم العاقل برئاسة الصغير المتتلمذ على يده بالعلم والمال، فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط، فافسح صدرك واصبر على حرمانك مما تظن أن به خيراً لك واشكر الله على ما أعطاك، واسلك أبواب الخير الأخرى فهذا فضل الله يؤتيه من يشاء.

* المنصف سابق للخيرات

فإن سبقك أحد في خير أو نال خيراً ولم تنله فاستبق الخيرات الأخرى أو الحق بمن سبقك بصدق واعترف بأحقية من سبقك وفضل الله عليهم تنل خيراً عظيماً، ويرضيك الله فافسح صدرك وافعل كما فعل الحارث بن هشام أخو أبي جهل. أسلم يوم الفتح، وحسن إسلامه، وكان خيراً، شريفاً، كبير القدر، وهو الذي أجارته

أم هانىء. فقال لها النبي ﷺ، «**قد أجرنا من أجرت**». أعطاه النبي ﷺ، من غنائم حنين مئة من الإبل، استشهد بالشام، وتزوج عمر بعده بامرأته فاطمة.

مات في طاعون عمواس سنة ثماني عشرة.

عن أبي نوفل بن أبي عقرب، قال: خرج الحارث بن هشام فجزع أهل مكة وخرجوا يشيعونه، فوقف ووقفوا حوله يبكون، فقال: والله ما خرجت رغبةً بنفسي عنكم، ولا اختيار بلدٍ على بلدكم، ولكن هذا الأمر كان، فخرجت فيه رجال من قريش ما كانوا من ذوي أسنانها، ولا في بيوتها وأصبحنا ـ والله ـ لو أن جبال مكة ذهباً فأنفقناها في سبيل الله، ما أدركنا يوماً من أيامهم فنلتمس أن نشاركهم في الآخرة، فاتّقي الله امرؤ. فتوجه غازياً إلى الشام، واتبعه ثَقَلُه، فأصيب شهيداً رضي الله عنه.

ليس من الإنصاف سوء الظن بنصيحة الصالحين:

المنصف الكيس هو الذي يحسن مشاورة الآخرين وتقبل نصائحهم. وليس من الإنصاف وفسحة الصدر رفض المشورة إن خالفت هواه ورفضها بدعوى أن الآخرين في صدورهم شيء نحوه.. فما دام ذهب إليهم ووثق بهم وطلب نصحهم.. فله أن يقبل أو يرفض المشورة، ولكن دون اتهام النوايا إن خالفت هواه. كما أنه لا يحق للمستشار أن يسيء الظن إن رفضت مشورته.

* **خطأ أودى بحياة ابن السِّكيت[١] رحمه الله تعالى:**

شيخ العربية، يعقوب بن إسحاق بن السِّكيت، البغدادي النحوي المؤدب، مؤلف كتاب «إصلاح المنطق» دين خيِّر مات سنة ٢٤٤هـ.

وقال أحمد بن عبيد: شاورني يعقوب في منادمة المتوكل، فنهيته فحمل قولي على الحسد، ولم ينته.

ويروى أنَّ المتوكل نظر إلى ابنيه المعتز والمؤيد، فقال لابن السكيت: من أحب إليك: هما، أو الحسن والحسين[٢]؟ فقال: بل قَنْبَر، فأمر الأتراك فداسوا بطنه فمات بعد يوم. وقيل: حمل ميتاً في بساط، وكان في المتوكل نصب[٣] نسأل الله العفو والعافية.

---

(١) قال ابن خلكان: عرف بذلك لأنه كان كثير السكوت، طويل الصمت، وكل ما كان على وزن «فعيل» و«فعليل» فإنه مكسور الأول.

(٢) الخبر بألفاظ مختلفة في «وفيات الأعيان» ٦/٣٩٧، ٣٩٨» وفي «النجوم الزاهرة ٢/٣١٨»، واللفظ فيه: من أحبُّ إليك: أنا وولداي المؤيد والمعتز أم علي والحسن والحسين؟ فقال: والله إن شعرة من قنبر خادم علي خير منك ومن ولديك.

(٣) أهل النصب: هم المتدينون ببغضة على رضي الله عنه، لأنهم نصبوا له: أي عادوه.

اعتراف العلماء بعلو مرتبة بعضهم من الإنصاف وفسحة الصدور:

عن عمر بن عبدالله، قال سعيد بن المسيب لقتادة: ما كنت أظن أن الله خلق مثلك.

وإلى الدعاة الذين تحلوا بهذا الخلق الرفيع عليكم بفسح صدوركم، وإنصاف الآخرين بقول الحق ولو على أنفسكم كما فعل إسحاق بن راهويه رحمه الله تعالى.

وقال أحمد بن سلمة: سمعت إسحاق بن راهويه يقول: **الحق يحبه الله عز وجل: أبو عبيدٍ القاسمُ بن سلام أفقه مني وأعلم مني.**

فرحم الله هذا الإمام المتواضع ما أفسح صدره، ورحم الله كل من كان على هذا الخلق الرفيع.

وانظر فسحة صدور الأئمة والعلماء في الثناء على علي بن المديني رحمهم الله تعالى واقتد بهم.

١ ـ قال أبو حاتم الرازي: كان ابن المديني علماً في الناس في معرفة الحديث والعلل. وكان أحمد بن حنبل لا يسميه، إنما يكنيه تبجيلاً له.

٢ ـ إبراهيم بن بشار، حدثنا سفيان بن عيينة، فذكر حديثاً ثم قال سفيان: تلومني على حب عليّ، والله لقد كنت أتعلم منه أكثر مما يتعلم مني.

كان سفيان يسمي علي بن المديني حيةَ الوادي.

٣ ـ وقال عباس العنبري: كان يحيى القطان ربما قال: لا أحدث شهرا ولا أحدث كذا، فحُدِّثت أنه حدث ابن المديني قبل انقضاء الشهر. قال: فكلمت يحيى في ذلك، فقال: إني أستثني علياً، ونحن نستفيد منه أكثر من أن يستفيد منا.

٤ ـ قال إبراهيم بن معقل: سمعت البخاري، يقول: ما استصغرت نفسي عند أحد إلا عند علي بن المديني.

قالها البخاري مع أنه أمير المؤمنين في الحفظ والعلم بالحديث وفي زماننا ترى بعض المنتسبين للعلم لا يفسح صدره وينصف كبار العلماء بل لا تسمع منه إلا انتقاصاً واحتقاراً لهؤلاء العلماء.

وفي المقابل رأينا هذه الصور الجميلة عند السلف عند بعض علمائنا ودعاتنا المعاصرين من الاعتراف بفضل بعضهم على بعض وأن للبعض مراتب لم يبلغوها وتمتلىء قلوبهم إنصافاً وتواضعاً وحياءً فلا ترتضي نفوسهم ترأس مجالس العلم في حضرة أقرانهم من العلماء. فرحم الله أصحاب هذا الإنصاف وترى هؤلاء الأقران قابلوا هذا الإنصاف بتواضع وحياء أعظم كما حدث في المجلس التالي.

قال محمد بن يوسف الفريابي: كنتُ في مجلس فيه الأوزاعي وسعيد بن عبدالعزيز، وسليمان الخواص، فذكر الأوزاعي الزهاد، فقال: ما نزيد أن نريد مثل هؤلاء، فقال سعيد: ما رأيت أزهد من

سليمان الخواص، وما شعر أنه في المجلس، فقنع سليمان رأسه، وقام، فأقبل الأوزاعي على سعيد، وقال: ويحك لا تعقل ما يخرج من رأسك! تؤذي جليسنا؛ تزكيه في وجهه.

ويقال: إن سعيد بن عبدالعزيز زار الخواص ليلة في بيته ببيروت، فرآه في الظلمة، فقال: ظلمة القبر أشد، فأعطاه دراهم، فردها، وقال: أكره أن أعود نفسي مثل دراهمك، فمن لي بمثلها إذا احتجتُ، فبلغ ذلك الأوزاعي فقال: دعوه فلو كان في السلف لكان علامة.

وهذه يقولها الأوزاعي مع أنه من أقران سليمان الخواص. ومن إنصاف السلف عدم تزكية أنفسهم لغير حاجة ماسة في موقف قد يفهم منه انتقاص الآخرين من العلماء ويبقى على المودة التي بينه وبين الآخرين ولو كان هو أفضل منهم. كما في هذا الموقف المحرج الذي حدث للقاسم بن محمد ابن خليفة رسول الله ﷺ أبي بكر الصديق.. الإمام القدوة الحافظ الحجة، عالم وقته بالمدينة مع سالم وعكرمة.

عن ابن إسحاق قال: رأيت القاسم بن محمد يُصلي، فجاء أعرابي فقال: أيما أعلم أنت أم سالم؟ فقال: سبحان الله، كل سيخبرك بما علم، فقال: أيكما أعلم؟ قال: سبحان الله، فأعاد، فقال: ذاك سالم، انطلق، فسله، فقام عنه، قال ابن إسحاق: كره

أن يقول: أنا أعلم، فيكون تزكية، وكره أن يقول: سالم أعلم مني فيكذب. وكان القاسم أعلمهما.

عن عبدالله بن عمر القمري قال: مات القاسم وسالم أحدهما سنة ١٠٥، والآخر سنة ١٠٦.

هذه يا عبدالله أخلاق العلماء فإياك وإشاعات من لا فسحة له في صدره ولا إنصاف ممن يشهر بالعلماء وإخوانك الدعاة ممن حولك بغير الحق.. وتمسك بإخوانك بما عهدت عليهم من خير وصلاح وتمسكٍ بالسنة وحسنِ اتباع وجميل أخلاق.

قال العقيلي: حدثنا أحمد بن محمد: سمعت أبا صالح محمد بن إسماعيل الصراري يقول: بلغنا ونحن بصنعاء عند عبدالرزاق أن أصحابنا، يحيى بن معين، وأحمد بن حنبل وغيرهما، تركوا حديث عبدالرزاق وكرهوه، فدخَلنَا من ذلك غمٌّ شديد، وقلنا: قد أنفقنا، ورحلنا وتعبنا، فلم أزل في غم من ذلك إلى وقت الحج، فخرجت إلى مكة فلقيت بها يحيى بن معين، فقلت له: يا أبا زكريا، ما نزل بنا من شيء بلغنا عنكم في عبدالرزاق؟ قال: ماهو؟ قلنا: بلغنا أنكم تركتم حديثه ورغبتم عنه، قال: يا أبا صالح، لو ارتد عبدالرزاق عن الإسلام ما تركنا حديثه.

من الإنصاف حسن التعامل مع الإخوة:

على الأخ أن لا يصدق كل إشاعة يتقولها الناس فما أسرع

انتشار الأقوال بين الناس عن العلماء أو الدعاة.

ومهما بلغك عن أخيك، فالتمس له المعاذير، ومهما غاب عنك وابتعد فلتبقَ المودة وفسحة الصدر كما فعل إبراهيم الحربي الشيخ الإمام، الحافظ، العلامة المولود سنة ١٩٨ مع أحد أقرانه:

قال أبو الحسن بن قريش: حضرت إبراهيم الحربي ـ وجاءه يوسف القاضي، ومعه ابنه أبو عمر ـ فقال له: يا أبا إسحاق! لو جئناك على مقدار واجب حقك، لكانت أوقاتنا كلها عندك. فقال: ليس كل غيبة جفوة، ولا كل لقاءٍ مودة، وإنما هو تقارب القلوب.

انظر كيف أنصفهم لحسن أدبهم ـ رحمه الله تعالى ـ فأحسن لقيا إخوتك وعظّم جهودهم وانشغالهم في أمورٍ أخرى لا تتسع معها أوقاتهم لزيارتك، ولا تكن كذاك الذي يقابل أخاه باتهامه بالتقصير في زيارته، والكبر عليه فينفر منه، أو يكره لقياه. وقد يكون المتهم ممن لا يتزاور مع إخوانه أبداً. فيرد عليه الآخر بألفاظ تعنيف لأنه يطالب بما لا يفعل.

فيا حبذا أن يعتاد المسلم أن يتلفظ بجميل الكلام وحَسَن التعبير وألطفه مع إخوانه بالحق، وينصفهم فينصفوه.

* من الإنصاف فسحة الصدر على جفوة النصيحة:

كما حُدث بين الجوعي الإمام الولي المحدث المتوفى سنة ٢٤٨ ورفيقه الإمام أحمد بن أبي الحواري:

قال محمد بن الفيض: قدم ابن أكثم دمشق مع المأمون، فبعث إلى أحمد بن أبي الحواري، فجاء إليه، وجالسه، فخلع يحيى عليه طويلةً وملبوساً، وأعطاه خمسة آلاف درهم، وقال: فرقها يا أبا الحسن حيث ترى، فدخل بها المسجد، وصلى صلواتٍ بالخلعة، فقال قاسم الجوعي: أخذ دراهمَ اللصوص، ولبس ثيابهم، ثم أتى الجامع ومرَّ به وهو في التحيات، فلما حذاه لطم القلنسوة، فسلم أحمد، وأعطى القلنسوة ابنه إبراهيم، فذهب بها، فقال له من رآه: ما رأيت ما فعل بك هذا؟ فقال: رحمه الله.

هذه فسحة صدر مع الخاصة والمقربين من إخوتك.. وهي تطالبك بفسحة صدر مع عامة الناس ودهمائهم، في عملك وفي تجارتك، وفي طريقك فتحلى بالحلم والرفق وفسحة الصدر، كما فسح صدره أبو إسحاق الشيرازي الإمام، القدوة، المجتهد الشافعي نزيل بغداد المولود سنة ٣٩٣ والمتوفى سنة ٤٧٦.

قيل: إنَّ أبا إسحاق نزع عمامته ـ وكانت بعشرين ديناراً ـ وتوضأ في دجلة، فجاء لص فأخذها، وترك عمامة رديئة بدلها، فطلع الشيخ فلبسها، وما شعر حتى سألوه وهو يدرس، فقال: لعل الذي أخذها محتاج.

* ترك بعض الحط على الكبار من فسحة الصدر وجمع الأمة

قال الذهبي في ترجمة الخطيب البغدادي :

تناكد ابن الجوزي رحمه الله وغضَّ من الخطيب، ونسبه إلى أنه يتعصب على أصحابنا الحنابلة.

قلت (أي الذهبي): ليت الخطيب ترك بعض الحطِّ على الكبار فلم يروه.

وهذا التوجيه من الذهبي لنا جميعاً، إذ أن الحطَّ على الكبار في كل صغيرة وكبيرة، لا تقبله النفوس عامة ولا الكبار خاصة.

والذهبي يتكلم من منطلق تجربة وخبرة عاصرها. فضلاً أن المرء بعد الأحداث بسنين طوال، بعد انتهاء الأحداث وظهور آثارها أقرب لاستنباط العبرة والدرس.

والخطيب البغدادي ـ رحمه الله تعالى ـ أداه اجتهاده للكتابة في بعض الكبار إذ كان يسعى للجمع بين أهل الرأي وبين أهل الحديث.. والتخفيف من حدة التوتر بينهما والتعصب لأئمتهما. فأظهر نقص هذا وعيب ذاك، وحاجة كلٍّ للآخر. إلا أن لغته لم تعجب البعض لضيق في الصدر، لذا ذكر الذهبي التوجيه السابق.. في التخفيف والتقليل من الحطِّ على الكبار صراحة.

* من الإنصاف الدعاء للدعاة والعاملين للإسلام:

كما كان يدعو أحمد بن حنبل لكثير من المسلمين:

قال عبدالله: ربما سمعت أبي في السحر يدعو لأقوام بأسمائهم. ومن في صدره فسحة يتحلى بهذه الصفة فيدعو لإخوانه من الدعاة والعاملين للإسلام وجميع المسلمين بالتوفيق والصلاح والسداد والثبات وأن يجمع الله بين قلوبهم ويؤلف بينها وأن ينصرهم جميعاً على أعدائهم.

* ليس من الإنصاف إزدراء الناس:

قال أبو وهب المروزي: سألت ابن المبارك: ما الكبر؟ قال: أن تزدري الناس. فسألته عن العجب؟ قال: أن ترى أن عندك شيئاً ليس عند غيرك، لا أعلم في المصلين شيئاً شرًّا من العجب.

* ليس من الإنصاف الاستخفاف بالآخرين:

عن ابن المبارك قال: من استخف بالعلماء، ذهبت آخرته، ومن استخف بالأمراء، ذهبت دنياه، ومن استخف بالإخوان ذهبت مروءته.

وكيف سينصف المتكبر المعجب بنفسه المستخف بإخوانه الآخرين، مادام يرى نفسه أعلى، وأعقل وأذكى منهم وهو الهمام الحارث المتفرس.. فياليته حمد الله على ما وهبه، وأنصف نفسه

وأنصف إخوانه بأن يعاملهم بما يحب أن يعاملوه به بالصدق في الأخوة والمصاحبة وأداء الحقوق الإسلامية كالنصيحة والتحلي بحسن الخلق معهم، ويشتغل بما ينفعه في الآخرة، ويفيد إخوانه والآخرين من حوله..

هذا إن كانت فيه صفات خُلقية حسنة فكيف إذا كان قليل الهمة كسولاً سمجاً لا يعمل عقله ولا يجتهد في تحسين نفسه، عديم الفراسة ثم يزدري الآخرين ويستخف بمن حوله فهذا مصيبتة أعظم.

فاحرص يا أخي على معاملة الناس بحسن الخلق وسخاء اليد وسعة الصدر تسعهم وأنصفهم بإنزالهم منازلهم.. وأنصف نفسك وارحمها.. فرحم الله امرءًا عرف قدر نفسه.

المنصف يقول: اللهم اغفر لي ولأخي

ونختم الحث على فسحة صدر المنصف بهذا الدرس العظيم الذي علّمه لنا علي بن الحسين بن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، المشهور بزين العابدين:

عن أبي يعقوب المدني، قال: كان بين حسن بن حسن وبين ابن عمه علي بن الحسين شيءٌ، فما ترك حسن شيئاً إلا قاله، وعلي ساكت، فذهب حسن، فلما كان في الليل، أتاه علي، فخرج، فقال

عليٌ: يا ابن عمِّي إن كُنتَ صادقاً فغفر الله لي. وإن كنت كاذباً، فغفر الله لك، السلام عليك.

قال: فالتزمه الحسن، وبكى حتى رثى له. وما أحوج الدعاة أن يتدبروا هذا الدرس ويعوه حق الوعي وتعجب أن ينام المسلم ملء جفنيه وبينه وبين أخيه شحناء وجفوة.. أيقر لمن له قلب حي قرار.. وقد تأتيه المنية في تلك الليلة.

فرحم الله زين العابدين ما أعقله وما أفسح صدره.. لقد أنصف ابن عمه واعتذر له عن أمرٍ لم يفعله ودعا له بالمغفرة إن كان ابن عمه مخطئاً وفي كلتا الحالتين أرضى ابن عمه.

فمَن مِن الدعاة والأخوة يقتدى بزيد العابدين ويعفو عمن أخطأ عليه ولا يكن ممن لا يترك شيئاً إلا قاله، حتى يبلغ حد الكذب.

فأفسح صدرك وادع لأخيك بالمغفرة.. وتقدم إليه ولو كان في أقصى الدنيا ورضه عنك، بأي وسيلة سليمة صحيحة. ولا تبيتن ليلتك إلا وقد اصطلحتما فالصلح خير. ولا تعين الشيطان على أخيك وتجعله يأثم بسببك لشبهة عنده أو هوى أو وشاية. ويمتلىء صدرك غيضاً وحنقاً منه قد يتجاوز إلى غيبته في كل مجلس بحجة الدفاع عن النفس ورد المظلمة. ونصح الأمة ومصلحة الدعوة وحفاظاً على سياج الجماعة!!

فمن أراد مصلحة الدعوة وصدق في إنصاف المسلمين والحرص

على اجتماعهم فعليه أن يسعى جاهدا ليزيل حبائل الشيطان، التي نسجت بينه وبين الدعاة وإخوانه من المسلمين إن كان صادقاً في دعواه ولينصف نفسه وأخاه وينصفنا معه إن كان من قادة الدعوة وأئمة العلم، ولا يجعل خطأ الداعية أو العالم عائقاً دون مصلحة كبرى وعظمى وهي ائتلاف الدعاة واجتماعهم على منهاج أهل السنة والجماعة.

* الصحابة رضوان الله عليهم أئمة الإنصاف والتقدير:

عن جابر، قال عمر: أبو بكر سيدنا أعتق بلالاً سيدنا.

عن قيس قال: اشترى أبو بكر بلالاً وهو مدفون في الحجارة بخمس أواق ذهباً، فقالوا: لو أبيت إلا أوقية لبعناكه، قال: لو أبيتم إلا مئة أوقية لأخذته.

* هذا أمر الله.. فقراء وضعفاء المسلمين خير من أكابر وعظماء الضالين:

عن سعد، قال: كنا مع رسول الله، ﷺ، ستة نفر، فقال المشركون: اطرد هؤلاء عنك فلا يجترؤون علينا، وكنت أنا وابن مسعود وبلال ورجل من هذيل وآخران، فأنزل الله ﴿**ولا تطرد الذين يدعون ربهم**﴾ الآيتين [الأنعام، الآية: ٥٢].

والرسول ﷺ: يذكر أبابكر هذه القاعدة حتى بعد إسلام أكابر القوم.

عن عائذ بن عمرو أن أبا سفيان مرَّ على سلمان وبلال وصهيب في نفر فقالوا: ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها. فقال أبوبكر: تقولون هذا لشيخ قريش وسيدها! ثم أتى النبي ﷺ، فأخبره: فقال: «**يا أبا بكر! لعلك أغضبتهم، لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك**» فأتاهم أبو بكر فقال: يا إخوتاه أغضبتكم؟ قالوا: لا يا أبا بكر، يغفر الله لك.

* إنما التفاضل بالأعمال الصالحة:

عن عُروة بن رويم، عن القاسم أبي عبدالرحمن حدَّثه قال: زارنا سلمان الفارسي فصلَّى الإمام الظهر، ثم خرج وخرج الناس، يتلقونه كما يتلقى الخليفة، فلقيناه وقد صلَّى بأصحابه العصر، وهو يمشي، فوقفنا نُسلم عليه، فلم يبق فينا شريف إلا عرض عليه أن ينزل به، فقال: جعلت على نفسي مرتي هذه أن أنزل على بشير بن سعد، فلما قدم، سأل عن أبي الدرداء، فقالوا: هو مرابط، فقال: أين مُرابَطكم؟ قالوا: بيروت، فتوجه قِبَله، قال: فقال سلمان: يا أهل بيروت: ألا أحدثكم حديثاً يذهب الله به عنكم عرض الرباط. سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «**رباط يوم وليلة كصيام شهر وقيامه، ومن مات مرابطاً أُجير من فتنة القبر، وجرى له صالح عمله إلى يوم القيامة**».

* إن هذا القرآن يرفع الله به أقواماً ويضع به آخرين[١]:

وهذا الصحابي عبدالرحمن بن أبزى الخزاعي مولى نافع بن عبدالحارث رضي الله عنهما رفعه الله بالقرآن، وذلك بأن نافعاً مولاه استنابه على مكة حين تلقى عمر بن الخطاب إلى عسفان، فقال له: من استخلفت على أهل الوادي؟ يعني مكة، قال: ابن أبزى، قال: ومن ابن أبزى؟ قال: إنه عالم بالفرائض، قارىء لكتاب الله. قال أما إنَّ نبيكم صلى الله عليه وسلم قال: «**إن هذا القرآن يرفع الله به أقواماً ويضعُ به آخرين**».

ويروى عن عمر بن الخطاب أنه قال: ابن أبزى ممن رفعه الله بالقرآن.

* إن أكرمكم عند الله أتقاكم:

عن هشام بن عروة، عن أبيه: أن النبي ﷺ أخَّر الإفاضة من عرفة من أجل أسامة ينتظره، فجاء غلام أسود أفطس. فقال أهل اليمن: إنما جلسنا لهذا! فلذلك ارتدوا. يعنى أيام الردَّة.

ومن غير وجه، عن عمر: أنه لم يلق أسامة قط إلا قال: السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله! توفي رسول الله ﷺ وأنت عليَّ أمير.

---

(١) انظر فصل فضل القرآن في الجزء الثالث من هذه السلسلة مع القرآن وحملته في حياة السلف الصالح.

عن أبي بكر بن عبدالله بن أبي جهم، قال: دخلت على فاطمة بنت قيس، وقد طلقها زوجها.. الحديث. فلما حلتْ، قال رسول الله ﷺ: «**هل ذكرك أحد**»؟ قالت: نعم، معاوية وأبو الجهم. فقال: «**أما أبو الجهم فشديد الخلق، وأما معاوية فصعلوك، لا مال له. ولكن أنكحك أسامة**»؟ فقلت: أسامة! تهاوناً بأسامة ـ ثم قلت سمعاً وطاعة لله ولرسوله.

فزوجنيه، فكرّمني الله بأبي زيد، وشرفني الله، ورفعني به.

* وأصحاب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه خمسة كلهم إمام فيه عيب:

عن ابن سيرين، قال: أدركت القوم وهم يقدمون خمسة. من بدأ بالحارث الأعور ثنّى بعبيدة، ومن بدأ بعبيدة ثنّى بالحارث ثم علقمة الثالث، لا شك فيه، ثم مسروق، ثم شريح، وإنَّ قوماً أخسهم شريح لقوم لهم شأن.

عن محمد قال: كان أصحاب عبدالله خمسةً كلهم فيه عيب: عبيدة أعور، ومسروق أحدب، وعلقمة أعرج، وشريح كوسج[1] والحارث أعور.

وأول من كتب المسند فيه عيب خلقي: وهو الإمام العلامة

---

(١) الكوسج: الذي لا شعر على عارضية، ويقال: النقي الخدين من الشعر.

الحافظ نعيم بن حماد بن معاوية، أبو عبدالله الخزاعي المروزي الفرضي الأعور. صاحب التصانيف.

قال أحمد بن حنبل أول من عرفناه يكتب المسند نعيم بن حماد.

* وانظر ما الذي رفع الأحنف على أشراف الناس

عبدالملك بن عمير، قال: قدم علينا الأحنف الكوفة مع مصعب، فما رأيت صفةً تذم إلا رأيتها فيه كان ضئيلاً، صَعْل الرأس، متراكب الأسنان، مائل الذقن، ناتىء الوجنة، باخق العين، خفيف العارضين، أحنف الرجلين فكان إذا تكلم جلا عن نفسه.

الصَّعَل: صغر الرأس، والبَخَق: انخساف العين، والحنفُ: أن تُفتل كلُّ رِجْل على صاحبتها.

* نعم : إن أكرمكم عند الله أتقاكم.. ميزان بين الموالي والأشراف.

فهذا عطاء بن رباح مولى مكي شيخ الإسلام، مفتي الحرم أسود شديد السواد، ليس في رأسه شعر إلا شعرات، فصيح إذا تكلَّم، فما قال بالحجاز قُبِل منه.

وكان أبو العالية رُفيع بن مهران، الإمام المقرىء الحافظ المفسر، يقول كان ابن عباس يرفعني عى السرير وقريش أسفل من السرير،

فتغامزت بي قريش، فقال ابن عباس: هكذا العلم يزيد الشريف تشريفاً ويجلس المملوك على الأسرة.

قال الذهبي: هذا كان سرير دار الإمرة لما كان ابن عباس متوليها لعليٍّ رضي الله عنهما.

ولا الانتساب إلى قبيلة أو عشيرة ذات شرف ميزان لتعظيم الرجال أو انتقاصهم إنما العمل الصالح وما يحسنون. فهذا قتيبة بن مسلم بن عمرو الباهلي الأمير أبو حفص، أحد الأبطال والشجعان، من ذوي الحزم والدَّهاءِ والرأي والغَناء، وهو الذي فتح خوارزم وبخارى وسمرقند، وافتتح فرغانة [وكابل من أرض أفغانستان]، وبلاد الترك في سنة خمس وتسعين، وولي خراسان عشر سنين من قبيلة منحطة بين العرب وهي باهلة، قال الشاعر:

ولو قيل للكلب يا باهلي
عوى الكلبُ من لؤم هذا النسب

وقال آخر:

وما ينفع الأصل من هاشم إذا كانت النفس من باهله

قيل: إن قتيبة قال لهُبيرة: أي رجل أنت لولا أن أخوالك من سلول، فلو بادلت بهم، قال: أيها الأمير، بادل بهم من شئت، وجنبني باهلة. وقيل لأعرابي: أيسرك أنك باهلي وتدخل الجنة؟ قال: إي والله، بشرط أن لا يعلم أهل الجنة أني باهلي!!

ولقي أعرابي آخر فقال: ممن أنت؟ قال: من باهلة، فرثى له. فقال: أزيدك: إني لست من أنفسهم، بل من مواليهم، فأخذ الأعرابي يقبل يديه ويقول: ما ابتلاك الله بهذه الرزية إلا وأنت من أهل الجنة.

قال الذهبي: **لم ينل قتيبة أعلى الرتب بالنسب، بل بكمال الحزم والعزم والإقدام، والسعد وكثرة الفتوحات، ووفور الهيبة.**

وهذا أيضاً حفيد من أحفاده من باهلة أعزه الله بالإسلام الذي رفع الناس بما لديهم من محاسن وأعمال صالحة. وهو الأمير سعيد بن مسلم بن قتيبة الذي ولي أرمينية، والموصل، والسند، وسجستان، وكان فارساً جواداً، له أخبار ومناقب، مات زمن المأمون سنة سبع عشرة ومئتين.

* خلاصة ميزان تعظيم الرجال (١):

إن المرء يعظم بقدر اتباعه للسنة والحديث، وقيامه بالأعمال الصالحة ونصر الدين كما فعل الصحابة ومن تبعهم، وكلما نقص في جانب نقص تعظيمه حسب أهمية هذا الجانب.

وإليك أنموذجاً لتعظيم العلماء يبين لك سبب ما بلغوه من تعظيم:

(١) أنظر رسالة (ميزان الاعتدال في تعظيم الرجال موافقة السنة والحديث) عند ابن تيمية، ابن القيم، الذهبي إعداد: عبدالعزيز شاكر البغدادي.

❊ تعظيم الإمام الصابوني:

قال الذهبي: العلامة، القدوة، المفسر، المذكر، المحدث، شيخ الإسلام، أبو عثمان، إسماعيل بن عبدالرحمن بن أحمد النَّيسابوري، الصابوني. المولود سنة ٣٧٣ المتوفي سنة ٤٤٩.

قال عبدالغافر في «تاريخه»: خطب وصلى في الجامع نحواً من عشرين سنة وكان حافظاً، كثير السماع والتصانيف، حريصاً على العلم، سمع بنيسابور وهراة وسرخس والحجاز والشام والجبال. وحدَّث بخراسان والهند وجُرجان والشام والثغور والحجاز والقدس، ورزق العز والجاه في الدين والدنيا، وكان جمالاً للبلد، مقبولاً عند الموافق والمخالف مجمع على أنه عديم النظر، وسيف السنة، ودافع البدعة، وكان أبوه الإمام أبو نصر من كبار الواعظين بنيسابور، ففتك به لأجل المذهب، وقتل، فأقعد ابنه هذا بمجلس الوعظ وحضره أئمة الوقت، وأخذ الإمام أبو الطيب الصعلوكي في ترتيبه وتهيئة شأنه، وكان يحضر مجلسه هو والأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني، والأستاذ أبو بكر بن فورك، ويعجبون من كمال ذكائه وحسن إيراده، حتى صار إلى ما صار إليه، وكان مشتغلاً بكثرة العبادات والطاعات، حتى كان يضرب به المثل.

وأطنب عبدالغافر في وصفه، وأسهب، إلى أن قال: وقرأت في كتاب كتبه زين الإسلام من طوس في التعزية لشيخ الإسلام: أليس

لم يجسر مفتر أن يكذب على رسول الله في وقته؟ أليست السنة كانت بمكانة منصورةً، والبدعة لفرط حشمته مقهورة؟ أليس كان داعياً إلى الله هادياً عباد الله، شابًّا لا صبوة له، كهلًا لا كبوة له، شيخاً لا هفوة له؟ يا أصحاب المحابر، وطؤوا رحالكم، قد غيب من كان عليه إلمامكم. ويا أرباب المنابر، أعظم الله أجوركم، فقد مضى سيدكم وإمامكم.

قال الذهبي: ولقد كان من أئمة الأثر، له مصنف في السنة واعتقاد السلف، ما رآه منصف إلا واعترف له.

ولننتقل الآن إلى أنموذج آخر من العلماء لنرى أنما يعظم الرجل بمقدار إتباعه للسنة والحديث ودفاعه عنها.

* إنصاف ابن كلاب:

قال الذهبي: رأس المتكلمين بالبصرة في زمانه، أبو محمد، عبدالله بن سعيد بن كلاب القطان البصري صاحب التصانيف في الرد على المعتزلة، وربما وافقهم. وكان يلقب كلاباً لأنه كان يجر الخصم إلى نفسه ببيانه وبلاغته وأصحابه هم الكلابية، لحق بعضَهم أبوالحسن الأشعري، وكان يرد على الجهمية. قال بعض من لا يعلم: إنه ابتدع **ما ابتدعه ليدس دين النصارى في ملتنا وإنه أرضى أخته بذلك**، وهذا باطل، والرجل أقرب المتكلمين إلى السنة، بل هو في مناظريهم.

وصنف في التوحيد، وإثبات الصفات، وأن علو الباري على خلقه معلوم بالفطرة والعقل على وفق النص، وكذلك قال المحاسبي في كتاب «فهم القرآن». ولم أقع بوفاة ابن كلاب. وقد كان باقياً قبل الأربعين ومئتين.

وما نقص تعظيمه إلا بمخالفته للسنة في بعض الجوانب، ولاحظ تعبير الذهبي فقد وصفه برأس المتكلمين وأقربهم إلى السنة. الذي يعني أنهم ممن خالف السنة، وأن تعظيم وإنصاف الذهبي له كان بمقدار اقترابه من السنة إذ كان أقرب المتكلمين إلى السنة.

وننتقل من هذه المرحلة الثانية إلى المرحلة الثالثة لنرى أنموذجاً لرأس من رؤوس البدع والضلالة والزندقة ولنرى كيف انحط قدره بسبب مخالفته للحديث والسنة.

*** الحلاج:**

الحسين بن منصور بن محمي، أبو عبدالله، الفارسي البيضاوي الصوفي، والبيضاء: مدينة ببلاد فارس، وكان جده محمي مجوسيًا. قتل الحلاج سنة ٣٠٩. تبرأ منه سائر الصوفية والمشايخ والعلماء لسوء سيرته ومروقه، ومنهم من نسبه إلى الحلول، ومنهم من نسبه إلى الزندقة وإلى الشعبذة والزَّوْكرة، وقد تستر به طائفة من ذوي الضلال والانحلال وانتحلوه وروجوا به على الجهال، نسأل الله العصمة في الدين.

قال السلمي: وحُكي عنه أنه رؤى واقفاً في الموقف، والناس في الدعاء، وهو يقول: أنزهك عما قَرَفَك به عبادك، وأبرأ إليك مما وحدك به الموحدون.

قال الذهبي: هذا عين الزندقة، فإنه تبرأ مما وحد الله به الموحدون الذين هم الصحابة والتابعون وسائر الأمة، فهل وحدوه تعالى إلا بكلمة الإخلاص التي قال رسول الله ﷺ «**من قالها من قلبه، فقد حرم ماله ودمه**». وهي: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا برىء الصوفي منها، فهو ملعون زنديق، وهو صوفي الزي، والظاهر، متستر بالنسب إلى العارفين، وفي الباطن فهو من صوفية الفلاسفة أعداء الرسل كما كان جماعة في أيام النبي ﷺ منتسبون إلى صحبته وإلى ملته، وهم في الباطن من مردة المنافقين، وقد لا يعرفهم نبي الله ﷺ، ولا يعلم بهم. قال الله تعالى: ﴿**ومن أهل المدينة مردوا على النفاقِ لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين**﴾ [سورة التوبة، الآية: ١٠١].

فإذا جاز على سيد البشر أن لا يعلم ببعض المنافقين وهم معه في المدينة سنوات، فالأولى أن يخفى حال جماعة من المنافقين الفارغين عن دين الإسلام بعده عليه السلام على العلماء من أمته، فما ينبغي لك يا فقيه أن تبادر إلى تكفير المسلم إلا ببرهان قطعي، كما لا يسوغ لك أن تعتقد العرفان والولاية فيمن قد تبرهن زغله، وانهتك باطنه

وزندقته، فلا هذا ولا هذا، بل العدل أن من رآه المسلمون صالحاً محسناً، فهو كذلك، لأنهم شهداء الله في أرضه، إذ الأمة لا تجتمع على ضلالة، وأن من رآه المسلمون فاجراً أو منافقاً أو مبطلاً، فهو كذلك، وأن من كان طائفة من الأمة تضلله، وطائفة من الأمة تثني عليه وتبجله، وطائفة ثالثة تقف فيه وتتورع من الحط عليه، فهو ممن ينبغي أن يعرض عنه، وأن يفوض أمره إلى الله، وأن يستغفر له في الجملة، لأن إسلامه أصلي بيقين، وضلاله مشكوك فيه، فبهذا تستريح ويصفو قلبك من الغل للمؤمنين.

ثم اعلم أنَّ أهل القبلة كلهم، مؤمنهم وفاسقهم، وسنيهم ومبتدعهم سوى الصحابة ـ لم يجمعوا على مسلم بأنَّه سعيد ناج، ولم يجمعوا على مسلم بأنه شقي هالك، فهذا الصديق فرد الأمة، قد علمت تفرقهم فيه وكذلك عمر، وكذلك عثمان، وكذلك علي، وكذلك ابن الزبير، وكذلك الحجاج، وكذلك المأمون، وكذلك بشر المريسي، وكذلك أحمد بن حنبل والشافعي، والبخاري، والنسائي، وهلم جرًّا من الأعيان في الخير والشر إلى يومك هذا. فما من إمام كامل في الخير إلا وثم أناس من جهلة المسلمين ومبتدعيهم يذمونه ويحطون عليه، وما من رأس في البدعة والتجهم والرفض إلا وله أناس ينتصرون له، ويذبون عنه، ويدينون بقوله بهوىً وجهل، وإنما العبرة بقول جمهور الأمة الخالين من الهوى والجهل المتصفين بالورع والعلم.

فتدبر ـ يا عبد الله ـ نحلة الحلاج الذي هو من رؤوس القرامطة ودعاة الزندقة، وأنصف وتورع واتقِ ذلك، وحاسب نفسك، فإن تبرهن لك أن شمائل هذا المرء شمائل عدوٍّ للإسلام، محبٍّ للرئاسة، حريص على الظهور بباطل وبحق، فتبرأ من نحلته، وإن تبرهن لك والعياذ بالله، أنه كان ـ والحالة هذه ـ محقًّا هادياً مهديًّا فجدد إسلامك واستغث بربك أن يوفقك للحق وأن يثبت قلبك على دينه فإنما الهدى نور يقذفه الله في قلب عبده المسلم، ولا قوة إلا بالله. وإن شككت ولم تعرف حقيقته، وتبرأت مما رُمِيَ به، أرحت نفسك، ولم يسألك الله عنه أصلاً.

وبعد هذا التفصيل الحسن والقواعد العظيمة التي ذكرها الذهبي ـ رحمه الله تعالى ـ عليك يا عبدالله أن تسلك نهج الصالحين في الإنصاف والتعظيم بالعدل. وانظر ما الذي فرق الناس فاجتنبه وكن مع جمهور الأمة الخالين من الهوى والجهل والمتصفين بالورع والعلم تغنم وتسلم في دنياك وعند جبار السماوات من ظلم العباد وتبني البدع والتجهم والرفض، ومعاداة السنة ودعاتها وتقديم المنحرفين عن السنة والحديث على أتباعهما العاملين.

تفاوت مراتب الرجال

ثم أعلم رحمك الله أن أهل الخير والعلماء على مراتب وليسوا على مرتبة واحدة وقد تفاوتوا بالدرجات في الدنيا والآخرة أما في الدنيا فلنا الظاهر وأما في الآخرة فهذا أمر ليس لنا الحكم فيه على أحد من أهل الإسلام كائناً من كان ـ إلا بنص ثابت من رسول الله ﷺ ـ فالعالم والعامي مراتبهم في الجنان علمها عند الله. فقد يسبق هذا ذاك بعمل قلبي أو خفي لا نعلمه أو عملٍ علني هو عند الله عظيم وعندنا هَيّن.. إلا أنا نحكم بعموم ما أخبر رسول الله ﷺ وعموم المراتب والجوائز التي مَنَّ الله بها على عباده السابقين الصالحين المجاهدين العلماء والشهداء ومن سلك عملاً صالحاً خير ممن تهاون وتكاسل وكان من المفرطين.

*** الصحابة في قمة المراتب:**

وأول من نشهد لهم بالفضل وننصفهم هم صحابة رسول الله ﷺ.. فلا فضل لأحدٍ منا عليهم ولن ندرك أحداً منهم رضوان الله عليهم أجمعين..

وهم فيما بينهم على مراتب حسب سبقهم وجهادهم وأعمالهم الصالحة وتزكية رسول الله ﷺ لهم...

عن أبي هريرة قال: كان بين خالد وعبدالرحمن بن عوف شيء، فقال رسول الله، ﷺ، «**دعوا لي أصحابي أو أصيحابي، فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهباً لم يدرك مدَّ أحدهم ولا نصيفه**».

ومن نظر في كتاب فضائل الصحابة تيقن هذا الأمر فارجع إليها وانظر سيرهم رضوان الله عليهم وانصفهم ووالهم وأحبهم جميعاً وادع لهم وادع الله أن يلحقك بهم فالمرء مع من أحب واستعن بالله أن تتابع أعمالهم عسى أن تكون معهم في الجنان.. ولا تكن ممن ينتقص أحدهم فيكون خصيمك عند الله يوم القيامة ومن خاصمه ولي الله وأصحاب رسول الله ﷺ زل وخسر ـ والعياذ بالله.

* الصحابة فيما بينهم مراتب:

وهاك بعض ما يبين اختلاف مراتبهم رضوان الله عليهم أجمعين.

عن ابن عباس قال: جلسنا مع عمر، فقال: هل سمعت عن رسول الله ﷺ شيئاً أمر به المرء المسلم إذا سها في صلاته، كيف يصنع؟ فقلت: لا والله، أو سمعت أنت يا أمير المؤمنين من رسول الله في ذلك شيئاً؟ فقال: لا والله. فبينا نحن في ذلك أتى عبدالرحمن بن عوف فقال: فيم أنتما؟ فقال عمر: سألته، فأخبره. فقال له عبدالرحمن: لكني قد سمعت رسول الله ﷺ يأمر في ذلك. فقال له عمر: فأنت عندنا عدل فماذا سمعت؟ قال: سمعت رسول

الله ﷺ يقول: «**إذا سها أحدكم في صلاته حتى لا يدري أزاد أم نقص، فإن كان شك في الواحدة والثنتين، فليجعلها واحدة، وإذا شك في الثنتين أو الثلاث، فليجعلها ثنتين، وإذا شك في الثلاث والأربع، فليجعلها ثلاثاً حتى يكون الوهم في الزيادة، ثم يسجد سجدتين، وهو جالس، قبل أن يسلم، ثم يسلم**».

قال الذهبي: فأصحاب رسول الله ﷺ وإن كانوا عدولاً فبعضهم أعدل من بعض وأثبت فهنا عمر قنع بخبر عبدالرحمن، وفي قصة الاستئذان يقول: ائت بمن يشهد معك، وعلي بن أبي طالب يقول: كان إذا حدثني رجل عن رسول الله ﷺ، استحلفته، وحدثني أبو بكر، وصدق أبو بكر. فلم يحتج علي أن يستحلف الصديق، والله أعلم.

ولم ينس ولن ينسى المسلمون فضل السابقين وستبقى مراتبهم عالية لعلو عملهم فهل ننسى أن البراء ليلة العقبة هو أجلّ السبعين، وهو أولهم مبايعة لرسول الله ﷺ.

* وأن بعض الأنصار أعلى مرتبة من بعض رضوان الله عليهم:

عن يحيى بن عباد بن عبدالله، عن أبيه، قال: قالت عائشة ثلاثة من الأنصار لم يكن أحد يعتد عليهم فضلاً، كلهم من بني عبدالأشهل: سعد بن معاذ، وعباد بن بشر، وأسيد بن حضير.

❊ فضل عبدالله بن مسعود رضي الله عنه :

عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ، «**يا عبدالله إذنُك عليَّ أن ترفع الحجاب، وتسمعَ سوادي حتى أنهاك**». عن عبدالله قال: لما نزلت ﴿**ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح**﴾ الآية، قال رسول الله، ﷺ، «**قيل لي: أنت منهم**».

وأدرك الصحابة رضوان الله عليهم هذه المرتبة التي نالها هذا الصحابي وأنه بلغ مالم يبلغوه.

فعن أبي الأحوص سمعتُ أبا مسعود وأبا موسى حين مات عبدالله بن مسعود، وأحدهما يقول لصاحبه: أتراه ترك بعده مثله؟

قال: لئن قلت ذاك، لقد كان يُؤْذَن له إذا حجبنا ويشهد إذا غبنا.

ما أجمل هذا الخلق من الصحابة رضوان الله عليهم لقد شهدوا بالحق وأنصفوا رجلاً كثرت مناقبه وعظم الثناء عليه من رسول الله ﷺ، ومن أقرانه من الصحابة رضوان الله عليهم.

عن أبي وائل قال: كنتُ مع حُذيفة، فجاء ابن مسعود، فقال حذيفة: إن أشبه الناس هدياً ودلا وقضاء وخطبة برسول الله، ﷺ، من حين يخرج من بيته، إلى أن يرجع، لا أدري ما يصنع في أهله لعبدالله بن مسعود، ولقد علم المتهجدون من أصحاب محمد ﷺ، أنَّ عبدالله من أقربهم عند الله وسيلة يوم القيامة. وقد أخطأ بعض

من جهل قدر عبدالله بن مسعود وحطَّ من رتبته وظن أن الميزان هو جمال الخلقة؛ فقومهم رسول الله ﷺ وأثنى ثناءً بليغاً على ابن أم عبد رضي الله عنهما.

قال علي رضي الله عنه: أمر رسول الله ﷺ، ابن مسعود، فصعد شجرة يأتيه منها بشيء فنظر أصحابه إلى ساق عبدالله فضحكوا من حموشة ساقية، فقال رسول الله، ﷺ، «**ما تضحكون؟ كرِجْل عبدالله أثقل في الميزان يوم القيامة من أحد**».

فلنستفد من هذه الموعظة النبوية ولا يكون شغل المسلم انتقاص الآخرين من قصر أو طول أو سمن وبطنة أو صلع أو عورٍ وحول وننسى الثناء على المحاسن العظيمة الباقية لهم في الآخرة وفضائلهم علينا وعلى المسلمين في الدنيا لصحبتهم لنا أو دعوتنا وتعليمنا ولأخوتهم الإسلامية عامة.

* إنزال الصحابة كل في منزلته:

ولمن شارك في المهمات العظيمة مرتبة وفضل عمن لم يشارك ننصفه فيها ولا ننساها له. كما فعل الصحابة ببعضهم البعض.

فهذا عليٌّ رضوان ربي عليه يعلمنا كما علم من حوله هذا المبدأ المتأصل فيه وهو إنصاف أهل **الفضل والمراتب العلا وذكر محاسنهم**.

عن أبي البختري، قال: أتينا عليًّا، فسألناه عن أصحاب محمد ﷺ. قال عن أيهم تسألوني؟ قلنا: عن ابن مسعود. قال: عَلِم

القرآن والسنة، ثم انتهى، وكفى به علماً. قلنا أبو موسى؟ قال صبغ في العلم صبغة، ثم خرج منه. قلنا: حذيفة؟ قال: أعلم أصحاب محمد بالمنافقين. قالوا: سلمان؟ قال: أدرك العلم الأول، والعلم الآخر، بحر لا يدرك قعره، وهو منَّا أهل البيت. قالوا: أبو ذر؟ قال: وعى علماً عجز عنه. فسئل عن نفسه. قال: كنت إذا سألت أُعطيت، وإذا سكت ابتُديتُ.

فانظر كلامه رحمه الله، ما أصدق لهجته وعظيم ثنائه على إخوانه.. مع تواضع جم عندما سئل عن نفسه وإنصاف لها يفهمه اللبيب... وقد علم رضي الله عنه من يكلم وعلمنا أنه أعلى رتبة ممن سئل عنهم وأن هؤلاء الصحابة يشهدون له بذلك ففضائله كثيرة وتزكية رسول الله ﷺ له أكبر من أي شيء وهو أمير المؤمنين والخليفة الراشد. فرضي الله عنه وعنهم أجمعين.

❊ لا نعرف الناس إلا بأعمالهم:

وهكذا الناس العقلاء إذا ما تنافسوا وأراد كل أن يذكر بفضل قومه ومراتبه لم يفتخر بحطام الدنيا ونتن القوميات والعصبيات بل يفتخر بنصرهم لله ولدينه ويفتخر بالعلماء والدعاة العاملين منهم. دون انتقاص لفضل الآخرين. فهم منهم وإليهم وبعضهم أولياء بعض.

عن أنس، قال: افتخر الحيان من الأنصار، فقالت الأوس: منا غسيل الملائكة: حنظلة بن الراهب، ومنا من اهتز له العرش: سعد، ومنا من حمته الدَّبر[١]: عاصم بن أبي الأقلح، ومنا من أجيزت شهادته بشهادتين: خزيمة بن ثابت.

وبعض الناس إذا عُرِّفوا عُرفوا بأموالهم ومناصبهم ونسبهم إلا أن أهل الإسلام إذا عرفوا عرفوا بفضلهم وعملهم ومراتبهم. كما نعرف في زماننا كثيراً من العلماء والدعاة بعلمهم ودعوتهم وجهادهم ودورسهم ومؤلفاتهم ولا نعرف ما اسمه كاملاً وما عمله ومن أهله وذويه وأصله العرقي وحالته المالية.

وفي المقابل أهل الإسلام لا يعرفون الضالين إلا بمساوئهم وعلمانيتهم ونفاقتهم ولا ينظرون إلى نسب ومال وجاه المنافقين. وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يؤصل لنا هذا المبدأ.

روي قيس بن أبي حازم، أن عديَّ بن حاتم جاء إلى عمر، فقال: أما تعرفني؟ قال: أعرفك، أقمت[٢] إذا كفروا، ووفيت إذ غدروا، وأقبلت إذ أدبروا.

ورفض رسول الله ﷺ أن يختل ميزان المراتب من التقدير فمن

(١) الدبر: النحل، والزنانير.

(٢) أي ثبتَّ على الإسلام ولم ترتد، فقد قدم على أبي بكر الصديق في وقت الردة بصدقة قومه.

كان ذا ديانة وخلق أولى بالسيادة من ضعيف الدين وسيء الطبع.

عن ابن المنكدر أن رسول الله، ﷺ، قال: «**يا بني سلمة! من سيدكم؟**» قالوا: الجد بن قيس، وإنا لنُبخِّله. قال: «**وأي داء أدوى من البخل؟ بل سيدكم الجعد الأبيض عمرو بن الجموح**».

وزاد على رفع مرتبته أن أثنى على الصحابي رضوان الله عليه بالحق من أجل أن تمتلىء قلوب أتباعه حبًّا له وتعظيماً بما هو أهله.

وهذا معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما تخلق بخلق وضع كل رجل في مرتبته وأدب من حوله بهذا الخلق.

قيل: كان زياد معظماً للأحنف [بن قيس] فلما وُلِّي بعده ابنه عبيد الله تغير أمر الأحنف، وقدم عليه من هو دونه، ثم وفد على معاوية في الأشراف فقال لعبيد الله: أدخلهم عليَّ على قدر مراتبهم. فأخر الأحنف، فلما رآه معاوية أكرمه لمكان سيادته. وقال: إليَّ يا أبا بحر، وأجلسه معه وأعرض عنهم، فأخذوا في شكر عبيد الله بن زياد، وسكت الأحنف. فقال له: لم لا تتكلم؟ قال: إن تكلمت خالفتهم. قال: اشهدوا أني قد عزلت عبيد الله. فلما خرجوا كان فيهم من يروم الإمارة. ثم أتوا معاوية بعد ثلاث، وذكر كل واحد شخصاً، وتنازعوا، فقال معاوية: ما تقول يا أبا بحر؟ قال: إن وليت أحداً من أهل بيتك لم تجد مثل عبدالله. فقال: قد أعدته. قال: فخلا معاوية بعبيد الله وقال: كيف ضيعت مثل هذا الرجل الذي

عزلك وأعادك وهو ساكت؟! فلما رجع عبيدالله جعل الأحنف صاحب سره.

* اتباع الصحابة على هذا المنهج:

سرى هذا المبدأ الذي خرج من المدرسة النبوية في الأجيال المسلمة فعلموا أن لكل عالمٍ مرتبته ودرجته التي يتفوق بها على قوم ولا يتفوق بها على آخرين بل هم أعلى منه مرتبة. حتى أن البعض ينصف نفسه ويعترف بأن رتبة أخيه العالم الآخر أعلى منه.

قال علي بن أبي حَمَلَة: قدم علينا مسلم بن يسار دمشق، فقلنا له: يا أبا عبدالله، لو أن بالعراق من هو أفضل منك، لجاءنا الله به، فقال: كيف لو رأيتم عبدالله بن زيد أبا قلابة الجرمي. قال: فما ذهبت الأيام والليالي حتى قدم علينا أبو قلابة. [عبدالله بن زيد بن عمرو الإمام، شيخ الإسلام].

حتى أن بعضهم كانت تجتمع فيه خصال الأئمة العليا كلها.

عن حجاج الأسود، قال: تمنى رجل فقال: ليتني بزهد الحسن، وورع ابن سيرين، وعبادة عامر بن عبد قيس، وفقه سعيد بن المسيب، وذكر مطرف بن الشخير بشيء، قال: فنظروا في ذلك فوجدوه كله كاملاً في الحسن البصري.

* رفع العلماء مراتب بعضهم البعض بالحق والعدل :

وهذا الأوزاعي إمام الشاميين يقول: إذا مات ابن عون والثوري استوى الناس. . .

فرحمه الله رفع من قدر عبدالله بن عون إمام البصرة وسفيان الثوري إمام الكوفة تعظيماً لمرتبتيهما بين الناس وتواضع عن نفسه مع أنه من نظرائهما.

وأحمد بن حنبل يرى أن مرتبة الثقة الحقيقية لمن بلغ رتبة شعبة بن الحجاج ومِسْعَر بن كدام الإمام الثبت شيخ العراق الأحول الحافظ. فيقول أحمد بن حنبل: الثقة كشعبة ومِسْعَر.

ورفع الإمام وكيع بن الجراح درجة مسعر حتى قال: شك مسعر كيقين غيره.

وعبدالله ابن المبارك إمام الدنيا يقول رأيت أعبد الناس عبدالعزيز بن أبي رواد، وأورع الناس الفضيل بن عياض، وأعلم الناس سفيان الثوري، وأفقه الناس أبا حنيفة، ما رأيت في الفقه مثله.

فرفع كل عالمٍ ممن عاصره في أعلى مرتبة وذكر بفضلهم. وكان ذلك من إنصافه رحمه الله وإعطاء كل ذي حق حقه:

قال أحمد بن أبي الحواري: جاء رجل من بني هاشم إلى عبدالله بن المبارك ليسمع منه، فأبى أن يحدثه، فقال الشريف

لغلامه: قم فإن أبا عبدالرحمن لا يرى أن يحدثنا، فلما قام ليركب، جاء ابن المبارك ليمسك بركابه، فقال: يا أبا عبدالرحمن تفعل هذا ولا ترى أن تحدثني! فقال: أذل لك بدني، ولا أذل لك الحديث.

خلق الإنصاف هذا الذي تحلى به ابن المبارك وفعله يدعوك لتنصف الآخرين... فإن كثيراً مما يقع بين الدعاة يحتاج إلى هذا الإنصاف فليس كونك من طلبة العلم أو الدعاة مانعًا من أن تذل نفسك لأخيك، وتعطيه ما يستحقه من حقوق الأخوة والإسلام، حتى تدوم المودة والمحبة ويسود الاحترام.

فبارك الله فيك كن مباركاً كابن المبارك، مع جميع إخوانك عليك بإنزالهم منازلهم ووضعهم في أحسن مراتب ولا تخل بكامل حقوقهم ومنازلهم لخللهم في منزلة أو مرتبة خلقية أو سلوكية لا تصل إلى حد الخروج من الملة.

وهذا يحيى بن معين إمام الحديث يقول: وكيع في زمانه كالأوزاعي في زمانه. وعرف أحمد بن حنبل مرتبة وكيع بن الجراح الإمام الحافظ محدث العراق فكان يعظمه ويفخمه ويعرف رتبته، قال محمد بن عامر المصيصي: سألت أحمد: وكيع أحب إليك أو يحيى بن سعيد؟ فقال: وكيع. قلت: كيف فضلته على يحيى، ويحيى ومكانه من العلم، والحفظ والإتقان ما قد علمت؟ قال: وكيع كان صديقاً لحفص بن غياث، فلما ولي القضاء، هجره، وإن يحيى

كان صديقاً لمعاذ بن معاذ، فلما ولي القضاء، لم يهجره يحيى.

وتتضح دقة تفاوت المراتب بإجابة أبي داود لما سُئل أيما أحفظ وكيع أو عبدالرحمن بن مهدي؟ قال: وكيع أحفظ، وعبدالرحمن أتقن، وقد التقيا بعد العشاء في المسجد الحرام، فتواقفا حتى سمعا أذان الصبح.

ومازال العلماء المنصفون يشهدون بأن هذا العالم أو ذاك في زمانهم قد بلغ أعلى مرتبة في علم بعينه. انتهى العلم إلى أربعة في زمان أبي عبيد كما يقول، وهم: أبو بكر بن أبي شيبة أسردهم له، وأحمد بن حنبل أفقههم فيه، وعلي بن المديني أعلمهم به، ويحيى بن معين أكتبهم له.

فلم لا ينصف العلماء أنفسهم وطلبةُ العلم والدعاةُ علماءَهم ويعترفوا بفضلهم. كي يقدرهم الناس ويلتفوا حولهم بدلاً من النفرة منهم وإطلاق أعنة الألسنة بالشتم والسباب والتحقير؟ أم أنه الخوف من الالتفاف حول غيرهم ممن هم أهل لإرشاد الناس وتعليمهم. نعوذ بالله من التعصب والهوى.

حتى الشعراء الصادقين أنصف بعضهم البعض. فقد كان البحتري يرفع من أبي تمام، ويقدمه على نفسه، ويقول: ما أكلت الخبز إلا به، وإني تابع له.

* الناس ثلاثة:

يرى المأمون أن الناس ثلاثة: رجل منهم مثل الغذاء لابد منه، ومنهم كالدواء يحتاج إليه في حال المرض، ومنهم كالداء مكروه على كل حال.

أما أحمد بن عاصم الحكيم فيرى أن الناس ثلاث طبقات: مطبوع غالب وهم المؤمنون، فإذا غفلوا ذكروا، ومطبوع مغلوب فإذا بُصِّروا أبصروا ورجعوا بقوة العقل، ومطبوع مغلوب غير ذي طباع، ولا سبيل إلى رد هذا بالمواعظ.

قال الذهبي: فما الظن إذا كان واعظ الناس من هذا الضرب عبد بطنه وشهوته، وله قلب عري من الحزن والخوف، فإن انضاف إلى ذلك فسق مكين، أو انحلال من الدين، فقد خاب وخسر، ولابد أن يفضحه الله تعالى.

وبعد هذه المسيرة مع أئمة السلف في وضع كل رجل في مرتبته.. نرى الذهبي يسير على درب هذا المبدأ الشرعي ويقتدي بمن سلف من هذه الأمة فهذا السيد الإمام أبو جعفر الباقر محمد بن علي بن الحسين، ابن علي وفاطمة، المدني، زين العابدين.. وضعه الإمام الذهبي في مرتبته بإنصاف فقال:

كان أحد من جمع بين العلم والعمل والسؤدد، والشرف، والثقة، والرزانة، وكان أهلاً للخلافة. وهو أحد الأئمة الاثني عشر

الذين تبجلهم الشيعة الإمامية وتقول بعصمتهم وبمعرفتهم بجميع الدين. فلا عصمة إلا للملائكة والنبيين، وكل أحد يصيب ويخطىء، ويؤخذ من قوله ويترك سوى النبي ﷺ، فإنه معصوم، مؤيد بالوحي.

وشهر أبو جعفر بالباقر، من: بَقَر العلم، أي شقَّه فعرف أصله وخفيه. ولقد كان أبو جعفر إماماً، مجتهداً تالياً لكتاب الله، كبير الشأن ولكن لا يبلغ في القرآن درجة ابن كثير ونحوه، ولا في الفقه درجة أبي الزناد، وربيعة، ولا في الحفظ ومعرفة السنن درجة قتادة وابن شهاب، فلا نحابيه، ولا نحيف عليه. ونحبه في الله لما تجمع فيه من صفات الكمال.

* الجاهل لا يعلم رتبة غيره:

ومرة أخرى يدافع الذهبي رحمه الله عن إمام لم ينصف وانتقص من رتبته وهو انتقاص ممجوج عهدناه من قليلي الإنصاف. فإن كان المنتقص جاهلاً فالجاهل لا يعلم رتبة غيره وإن لم يكن فهو الهوى والعصبية أعاذنا الله منهما.

قال ابن عقيل: من عجيب ما سمعته عن هؤلاء الأحداث الجهال، أنهم يقولون: أحمد بن حنبل ليس بفقيه، لكنه محدث. قال: وهذا غاية الجهل لأن له اختيارات بناها على الأحاديث بناءً لا يعرفه أكثرهم. وربما زاد على كبارهم.

قال الذهبي: أحسبهم يظنونه كان محدثاً وبس، بل يتخيلونه من بابةِ محدثي زماننا. ووالله لقد بلغ في الفقه خاصة رتبة الليث، ومالك والشافعي، وأبي يوسف، وفي الزهد والورع رتبة الفضيل، وإبراهيم بن أدهم، وفي الحفظ رتبة شعبة، ويحيى القطان، وابن المديني ولكن الجاهل لا يعلم رتبة غيره؟!!

ومع الذهبي ـ في سيره ـ رحمه الله تعالى ودفاعه عن مرتبة الإمام أحمد بن حنبل ننتقل إلى مرحلة أخرى من مراحل الإنصاف وهو التأسي بالسلف في دفاعهم عن بعضهم البعض. وهي صفة تنقص الكثير ممن يصمت عن الحق ويكون شيطاناً أخرس لا يذب عن علماء الأمة أجمعين بإنصاف؛ يستوي في ذلك من هم على مذهبه ومن ليسوا على مذهبه؛ وعن المسلمين كافة؛ كانوا على طريقته أم لم يكونوا.

التأسي بالسلف في دفاعهم عن بعضهم البعض

* بئس ما قلت: والله ما نعلم إلا خيرا:

قال كعب بن مالك في قصة تخلفه عن غزوة تبوك، ولما بلغ النبي ﷺ تبوك، ذكرني، وقال: «ما فعل كعب»؟ فقال رجل من قومي: خلفه يا نبي الله برداه، والنظر في عطفيه، فقال معاذ: بئس

ما قلت: والله ما نعلم إلا خيراً.

كان هذا الدرس معلماً من معالم التربية النبوية عبر التاريخ إنه الدفاع عمن يحسن به الظن. وحسن الظن به لم يأت ممن هو من قومه بل من آخر كان أكثر ورعاً وأصدق لهجة: بئس ما قلت، والله ما نعلم إلا خيراً.

أفلا يقولها كل مسلم صادق عن علمائه العاملين وعن إخوانه من العاملين للإسلام الذين يعملون على نشره ودعوة الناس إلى أحكامه.

لقد كان بإمكان معاذ رضي الله عنه السكوت أمام رسول الله ﷺ تأدباً ولن يعيب عليه المصطفى سكوته.. ولكنه رضوان الله عليه أعلن الحق الذي ملأ قلبه.. فدافع عن أخيه أمام الرسول ﷺ.

ما أعظم أن يتحلى العلماء والدعاة بهذه الصفة فيما بينهم ويدافع كل منهم عن أخيه ما علم عليه خيراً. ويكفي ما يقوم به الكفار والمنافقون من كذب واتهام للصالحين. فبئس ما قالوا عن العلماء العاملين والدعاة الصادقين، فما نعلم عليهم إلا خيراً.. ومن أخطأ وقال من أهل الصدق سوءاً على إخوانه فنبين له وننصحه فقد يكون هناك لبس لديه ووشاة ينفخون في نار الفتنة.

وعلى هذا المسلك سار السلف ودافعوا عن أهل الفضل والدين

بما أوتوا من حيلة ووسيلة فهذا **خالد بن مهران** الإمام الحافظ الثقة، أبو المنازل البصري المشهور بالحذاء، أحد الأعلام. رأى أنس بن مالك. وثقة أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين وجماعة. وحديثه في الصحاح قال عباد بن عباد: أراد شعبة أن يضع من خالد الحذاء. فأتيته أنا وحماد بن زيد، فقلت له: مالك: أجننت؟ أنت أعلم! قال: وتهددناه فأمسك.

ودافع الذهبي عنه فعن عبدالله بن نافع القرشي أبو شهاب قال: قال لي شعبة: عليك بحجاج بن أرطاة، ومحمد بن إسحاق فإنهما حافظان، واكتم عليَّ عند البصريين في خالد الحذاء، وهشام يعني ابن حسان.

قال الذهبي: هذا الاجتهاد من شعبة مردود، لا يلتفت إليه. بل خالد وهشام محتج بهما في «الصحيحين» هما أوثق بكثير من حجاج وابن إسحاق، بل ضعف هذين ظاهر ولم يتركا.

* الدفاع عن وكيع بن الجراح:

قال يعقوب الفسوي ـ وبلغه قول يحيى: من فضل عبدالرحمن على وكيع فعليه اللعنة: ـ كان غير هذا أشبه بكلام أهل العلم، ومن حاسب نفسه، لم يقل مثل هذا، وكيع خَيِّر فاضل حافظ.

قال حنبل بن إسحاق: سمعت ابن معين يقول: رأيت عند مروان بن معاوية لوحاً فيه أسماء شيوخ. فلان رافضي، وفلان كذا،

ووكيع رافضي، فقلت لمروان: وكيع خير منك، قال: مني؟ قلت: نعم. فسكت، ولـو قال لي شيئاً، لوثب أصحاب الحديث عليه. قال: فبلغ ذلك وكيعاً، فقال: يحيى صاحبنا، وكان بعد ذلك يعرف لي، ويرحِّب.

نعم ألا تحب أن يحفظ لك إخوانك وعلماؤنا مثل هذا الموقف بالدفاع عنهم فلا تفرط في الدفاع عنهم تنل مكانة عالية عندهم. وليست هذه هي المـرة الوحيدة التي يُدافع فيها عن وكيع رحمه الله تعالى.. فقد وقع في محنة بسبب «سكتة فاتته» أطلق لسانه في قولٍ يغضب الناس كان يقصد به خيراً في إقليم مخالف لبلده فكانت محنة خطيرة. محنة وكيع ـ وهي غريبة ـ تورط فيها ولم يرد إلا خيراً، ولكن فاتته سكتة، وقد قال النبي ﷺ «**كفى بالمرء إثماً أن يحدث بكل ما سمع، فليتق عبد ربه، ولا يخافن إلا ذنبه**».

قال عليُّ بن خَشرم: حدثنا وكيع عن إسماعيل بن أبي خالد، عن عبدالله البهي، أن أبا بكر الصديق جاء إلى النبي ﷺ بعد وفاته، فأكب عليه، فقبله، وقال: (بأبي وأمي، ما أطيب حياتَك وميتَتَك)، ثم قال البهي: وكان تُرك يوماً وليلةً حتى ربا بطنُه، وانثنت خِنْصِراه ـ قال ابن خشرم: فلما حدث وكيع بهذا بمكة، اجتمعت قريش، وأرادوا صلب وكيع، ونصبوا خشبة لصلبه، فجاء سفيان بن عيينة، فقـال لهم: الله الله! هذا فقيه أهـل العـراق، وابن فقيهه، وهذا

حديث معروف. قال سفيان: ولم أكن سمعته إلا أني أردت تخليص وكيع.

قال علي بن خشرم: سمعت الحديث من وكيع، بعدما أرادوا صلبه فتعجبت من جسارته، وأُخبرت أن وكيعاً احتجَّ، فقال: إنَّ عدة من أصحاب رسول الله ﷺ منهم عمر قالوا: لم يمت رسول الله. فأراد الله أن يريهم آية الموت.

قال الذهبي: فهذه زلة عالم، فما لوكيع ولرواية هذا الخبر المنكر المنقطع الإسناد! كادت نفسه أن تذهب غلطاً، والقائمون عليه معذورون، بل مأجورون، فإنهم تخيلوا من إشاعة هذا الخبر المردود، غضّاً ما لمنصب النبوة، وهو في بادىء الرأي يوهم ذلك، ولكن إذا تأملته، فلا بأس إن شاء الله بذلك، فإن الحي قد يربو جوفه، وتسترخي مفاصله، وذلك تفرع من الأمراض، و«**أشد الناس بلاء الأنبياء**»، وإنما المحذور أن تجوز عليه تغيُّر سائر موتى الآدميين ورائحتهم، وأكل الأرض لأجسامهم، والنبي ﷺ مفارق لسائر أمته في ذلك، فلا يبلى، ولا تأكل الأرض جسده، ولا يتغير ريحه، بل هو الآن، ومازال أطيب ريحاً من المسك، وهو حي في لحده حياة مثلهِ في البرزخ، التي هي أكمل من حياة سائر النبيين، وحياتهم بلا ريب أتم وأشرف من حياة الشهداء الذين هم بنص الكتاب ﴿**أحياء عند ربهم يرزقون**﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٦٩] وهؤلاء حياتهم الآن التي

في عالم البرزخ حق، ولكن ليست هي حياة الدنيا من كل وجه، ولا حياة أهل الجنة من كل وجه، وهم شبه بحياة أهل الكهف، ومن ذلك: اجتماع آدم وموسى، لما احتج عليه موسى، وحجه آدم بالعلم السابق كان اجتماعهما حقًّا، وهما في عالم البرزخ، وكذلك نبينا ﷺ أخبر أنه رأى في السماوات آدم وموسى وإبراهيم وإدريس وعيسى، وسلم عليهم، وطالت محاوراته مع موسى، هذا كله حق. والذي منهم لم يذق الموت بعد هو عيسى عليه السلام، فقد تبرهن لك أن نبينا ﷺ مازال طيباً مطيباً، وأن الأرض محرم عليها أكل أجساد الأنبياء، وهذا شيء سبيله التوقيف، وما عنف النبي ﷺ الصحابة رضي الله عنهم لما قالوا له بلا علم: وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت؟ - يعني بليت - فقال: «**إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء**».

وهذا بحث معترض في الاعتذار عن إمام من أئمة المسلمين، وقد قام في الدفع عنه مثل إمام الحجاز سفيان بن عيينة، ولولا أن هذه الواقعة في عدة كتب، وفي مثل «تاريخ الحافظ ابن عساكر» وفي «كامل الحافظ ابن عدي» لأعرضتُ عنها جملةً، ففيها عبرة.

* الدفاع عن قبيصة بن عقبة:

أبومحمد، الحافظ الإمام الثقة العابد، أبوعامر السوائي الكوفي. وما أظنه ارتحل في الحديث، وكان من أوعية العلم.

عن يحيى بن معين: سمعت قبيصة يقول: شهدت عند شريك، فامتحنني في شهادتي، فذكرت ذلك لسفيان، فأنكر على شريك، وقال: لم يكن له أن يمتحنه. قال أحمد بن سلمة النيسابوري: سمعت هناداً يقول غير مرة، إذا ذكر قبيصة: الرجل الصالح. وتدمع عيناه، وكان هنادٌ كثير البكاء.

* الدفاع عن عالم ابتلي في المحنة:

وهو عفان بن مسلم بن عبدالله مولى عَزْرَةَ بن ثابت الأنصاري، الإمام الحافظ محدث العراق، أبو عثمان البصري الصفَّار، بقية الأعلام. ولد سنة ١٣٤ وتوفي سنة ٢٢٦.

قال حنبل: حضرت أبا عبدالله وابن معين عند عفان بعدما دعاه إسحاق بن إبراهيم للمحنة، وكان أول من امتحن من الناس عفان، فسأله يحيى من الغد بعد ما امتحن، وأبو عبدالله حاضر ونحن معه، فقال: أخبرنا بما قال لك إسحاق؟ قال: يا أبا زكريا لم أُسوِّد وجهك ولا وجوه أصحابك، إني لم أجب. فقال له: فكيف كان؟ قال: دعاني وقرأ عليَّ الكتاب الذي كتب به المأمون من الجزيرة، فإذا فيه: امتحن عفان، وادعه إلى أن يقول: القرآن كذا وكذا، فإن قال ذلك فأقره على أمره، وإن لم يجبك إلى ما كتبت به إليك فاقطع عنه الذي يجرى عليه ـ وكان المأمون يجري على عفان كل شهر خمس مئة درهم ـ فلما قرأ عليَّ الكتاب قال لي إسحاق، ما

تقول؟ قرأت عليه ﴿قل هو الله أحد﴾ حتى ختمتها، فقلت: أمخلوق هذا؟ فقال: يا شيخ إن أمير المؤمنين يقول: إنك إن لم تجبه إلى الذي يدعوك إليه يقطع عنك ما يجري عليك. فقلت: ﴿وفي السماء رزقكم وما توعدون﴾ [سورة الذاريات، الآية: ٢٢] فسكت عني، وانصرفت، فسر بذلك أبو عبدالله ويحيى.

قال الذهبي: هذه الحكاية تدل على جلالة عفان وارتفاع شأنه عند الدولة، فإن غيره امتحن وقيد وسجن، وعفان فما فعلوا معه غير قطع الدراهم عنه.

قال سلمة بن شبيب: قلت لأحمد بن حنبل: طلبت عفان في منزله، قالوا: خرج، فخرجت أسأل عنه، فقيل: توجه هكذا، فجعلت أمضي أسأل عنه، حتى انتهيتُ إلى مقبرة، وإذا هو جالس يقرأ على قبر بنت أخي ذي الرياستين، فبزقتُ عليه، وقلت: سوءةً لك قال: يا هذا، الخبز الخبز! قلت: لا أشبع الله بطنك. قال: فقال لي أحمد: لا تذكرن هذا فإنه قد قام في المحنة مقامًا محمودًا عليه، ونحو هذا من الكلام.

وهذا درس من الإمام أحمد أن تستر عمن زل زلة صغيرة أمام محاسن ومواقف له عظيمة، ولا يجوز أن نجعل زلة العالم وسيلةً للتنقص من قدره، فاستر عن إخوانك وعلمائك زلاتهم. ستر الله عليك.

* الدفاع عن حافظ اتهم بالجهم:

علي بن الجعد بن عبيد الإمام الحافظ الحجة مُسند بغداد، أبو الحسن البغدادي الجوهري مولى بني هاشم ولد سنة ٢٣٤هـ وتوفي سنة ٢٣٠هـ.

قال الحسين بن إسماعيل الفارسي، سألت عبدوس بن هانىء عن حال علي بن الجعد، فقال: ما أعلم أني لقيت أحفظ منه، فقال: كان يتهم بالجهم.

قال: قد قيل هذا، ولم يكن كما قالوا، إلا أن ابنه الحسن بن علي كان على قضاء بغداد، وكان يقول بقول جهم، قال: كان عند علي بن الجعد عن شعبة نحو من ألف ومئتي حديث، وكان قد لقي المشايخ فزهدت فيه بسبب هذا القول، ثم ندمت بعد.

وقال محمد بن حماد المقرىء: سألت يحيى بن معين عن علي بن الجعد، فقال: ثقة صدوق، ثقة صدوق قلت: فهذا الذي كان منه؟ فقال: أيش كان منه؟ ثقة صدوق.

كررها الإمام يحيى بن معين ثلاث مرات تأكيداً على رتبة الرجل وأنه لا ينحط عن هذه المرتبة دون كثير نقاش.

* الدفاع عن هفوة الإمام الحجة في الحديث:

الشيخ الإمام الحجة، أبو الحسن علي بن عبدالله بن جعفر

السعدي، مولاهم البصري، المعروف بابن المديني. ولد سنة ١٦١هـ وتوفي سنة ٢٣٤هـ بسامراء. أحياناً ينتقد المرء أخطاء إخوانه وبعض من يحيطون به دون أن يعذرهم بالرغم من أن هناك مخرجًا شرعيًا لهم فتجد هذا المنتقص بين ذويه آمناً في بلده معززًا وبين أهله وعصبته قويًا مكرماً، فإذا وقع عالم أو أخ أو جماعة في ورطة مع الطغاة فسلك مسلكاً لينقذ نفسه من تعذيبهم وتنكيلهم ولم يستطع الصبر.. أخذ هذا النمام ينتقص من أخيه المعذب ويحط من قدره ويغض من باقي محاسنه من أجل هذا الأمر الذي اضطر إليه، وإن كان الأفضل والأعظم الصبر على بلاء الله خاصة لمن يتخذه الناس إماماً وقدوة.

وقد يبتلي الله هذا النمام بأقل من بلاء أخيه فلا يصبر وحينئذ سيعذر نفسه في حين أنه لم يعذر أخاه!!

وهذه ورطة وقع فيها إمام كبير القدر في علم الحديث وهو الشيخ الإمام الحجة أبوالحسن علي بن عبدالله بن جعفر السعدي، مولاهم البصري، المعروف بابن المديني ولد سنة ١٦١. وتوفي سنة ٢٣٤هـ بسامراء.

فما هو موقف العلماء من هذه الهفوة؟

قال ابن عمار الموصلي في «تاريخه»: قال لي علي بن المديني: ما يمنعك أن تكفر الجهمية، وكنت أنا أولاً لا أكفرهم؟ فلما أجاب على إلى المحنة، كتبت إليه أذكره ما قال لي، وأذكره الله. فأخبرني رجل

عنه أنه بكى حين قرأ كتابي. ثم رأيته بعد، فقال لي: ما في قلبي مما قلت وأجبت إلى شيء، ولكني خفت أن أقتل، وتعلم ضعفي أني لو ضربت سوطاً واحداً لمت، أو نحو هذا.

قال ابن عمار: ودفع عني علي امتحان ابن أبي دواد إياي، شفع في ودفع في غير واحد من أهل الموصل من أجلي، فما أجاب ديانة إلا خوفاً.

قال عبدالرحمن بن أبي حاتم: كان أبو زرعة ترك الرواية عن علي من أجل ما بدا منه في المحنة، وكان والدي يروي عنه لنزوعه عما كان منه. قال أبي: كان عليٌّ علماً في الناس في معرفة الحديث والعلل.

قال الذهبي: ويروى عن عبدالله بن أحمد، أن أباه أمسك عن الرواية عن ابن المديني، ولم أر ذلك، بل في «مسنده» عنه أحاديث، وفي «صحيح البخاري» عنه جملة وافرة.

* الدفاع عن عالم اتهم من أجل نصرته لمذهب أهل السنة والجماعة:

وهو العلامة الكبير، ذو الفنون، أبو محمدٍ، عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري الكاتب، صاحب التصانيف مات سنة ٢٧٦.

نزل بغداد، وصنف وجمع، وبعد صيته. قال أبو بكر الخطيب: كان ثقة دينا فاضلاً.

وقد ولي قضاء الدينور، وكان رأساً في علم اللسان العربي، والأخبار وأيام الناس.

وقال مسعود السجزي: سمعت أبا عبدالله الحاكم يقول: أجمعت الأمة على أن القتبيَّ كذاب.

قلت: هذه مجازفة وقلة ورع، فما علمت أحداً اتهمه بالكذب قبل هذه القولة، بل قال الخطيب: إنه ثقة دَيِّنٌ فاضل.

عن حماد الخراني أنه سمع السلفي ينكر على الحاكم في قوله: لا تجوز الرواية عن ابن قتيبة. ويقول: ابن قتيبة من الثقات، وأهل السنة. ثم قال: لكن الحاكم قصده لأجل المذهب.

قال الذهبي: عهدي بالحاكم يميل إلى الكرامية، ثم ما رأيت لأبي محمد في كتاب «مشكل الحديث»[1] ما يخالف طريقة المثبتة والحنابلة، ومن أن أخبار الصفات تمر ولا تتأول، فالله أعلم.

والرجل ليس بصاحب حديث، وإنما هو من كبار العلماء المشهورين، عنده فنون جمة وعلوم مهمة.

قال قاسم بن أصبغ: كنا عند ابن قتيبة، فأتوه بأيديهم المحابر، فقال: اللهم سلمنا منهم. فقعدوا، ثم قالوا: حدثنا ـ رحمك الله ـ

(١) وهو من الكتب القيمة التي دافع بها ابن قتيبة ونصر مذهب السلف في الصفات، وله كتاب (عيون الأخبار) لو أن الدعاة تربوا على ما فيه لكان خيراً عظيماً.

قال: ليس أنا ممن يحدث، إنما هذه الأوضاع، فمن أحب؟ قالوا له: ما يحل لك هذا، فحدثنا بما عندك عن إسحاق بن راهوية، فإنا لا نجد فيه إلا طبقتك، وأنت عندنا أوثق. قال: لَست أحدث. ثم قال لهم: تسألوني أن أحدث، وببغداد ثمان مئة محدث، كلهم مثل مشايخي!، لست أفعل. فلم يحدثهم بشيء.

* دفاع عن إمام أخطأ في حق طالب علم إمام:

أحمد بن صالح الإمام الكبير، حافظ زمانه بالديار المصرية، أبو جعفر المصري المعروف بابن الطبري. ولد بمصر سنة ١٧٠ ومات سنة ٢٤٨.

ذكره النسائي يوماً، فرماه، وأساء الثناء عليه.

قال ابن يونس: لم يكن عندنا بحمد الله كما قال النسائي ولم يكن له آفة غير الكبر.

وقال عبدالكريم بن النسائي عن أبيه: أحمد بن صالح ليس بثقة ولا مأمون، تركه محمد بن يحيى، ورماه يحيى بن معين بالكذب.

قال ابن عدي: أحمد بن صالح من حفاظ الحديث، وخاصة لحديث الحجاز، ومن المشهورين بمعرفته، وحدث عنه البخاري مع شدة استقصائه ومحمد بن يحيى، واعتمادهما عليه في كثير من حديث الحجاز، وحدث عنه من حدث من الثقات، واعتمدوه حفظاً

وإتقاناً. وكلام ابن معين فيه تحامل. وأما سوء ثناء النسائي عليه، فسمعت محمد بن هارون بن حسان البرقي يقول: هذا الخراساني يتكلم في أحمد بن صالح. وحضرت مجلس أحمد بن صالح، وطرده من مجلسه، فحمله ذلك على أن تكلم فيه قال: وهذا أحمد بن حنبل قد أثنى عليه، فالقول ما قاله أحمد لا ما قاله غيره. ولولا أني شرطت في كتابي هذا أن أذكر فيه كل من تكلم فيه متكلم لكنت أجل أحمد بن صالح أن أذكره.

* عدالة الرجال أقوى من الكلام فيهم:

الدفاع عن ابن الشرقي.

الإمام العلامة الثقة، حافظ خراسان، أبو حامد أحمد بن محمد بن الحسن النيسابوري ابن الشرقي، صاحب «الصحيح» وتلميذ مسلم. مات سنة ٣٢٥هـ، ذكره أبو عبدالله الحاكم فقال: هو واحد عصره حفظاً وإتقاناً ومعرفةً.

قال الحاكم: سمعت الحسين التميمي، سمعت ابن خزيمة يقول ـ ونظر إلى أبي حامد ابن الشرقي ـ فقال: حياة أبي حامد تحجز بين الناس، وبين الكذب في رسول الله ﷺ.

قلت: يعني: أنه يعرف الصحيح وغيره من الموضوع.

السلمي: سألت الدارقطني عن أبي حامد ابن الشرقي فقال: ثقة مأمون إمام. قلت: لم تكلم فيه ابن عقدة؟ فقال: سبحان الله

ترى يؤثر فيه مثل كلامه، ولو كان بدل ابن عقدة بيحيى بن معين. فقلت: وأبو علي؟! قال: ومن أبو علي حتى يسمع كلامه فيه.

وقال الخليلي: هو إمام وقته بلا مدافعة.

وحتى ابن عقدة مع خطئه هذا في حق ابن الشرقي تنقص من حقه فدافع عنه أحد الأئمة.

فهو أحمد بن محمد بن سعيد، أبو العباس الكوفي الحافظ العلامة أحد أعلام الحديث ونادرة الزمان، وصاحب التصانيف على ضعف فيه وهو المعروف بالحافظ ابن عقدة.

ولد أبو العباس في سنة ٢٠٩ بالكوفة ومات سنة ٣٣٢.

جمع التراجم والأبواب والمشيخة، وانتشر حديثه، وبعد صيته وكتب عمن دب ودرج من الكبار والصغار والمجاهيل، وجمع الغث والسمين، والخرز إلى الدر الثمين.

قال الدارقطني: أجمع أهل الكوفة أنه لم ير من زمن عبدالله بن مسعود إلى زمن أبي العباس بن عقدة أحفظ منه.

قال الذهبي: ثمَّ أئمة حفاظ.. يمتازون عليه بالإتقان والعدالة التامة، ولكنه أوسع دائرةً في الحديث منهم.

قال الحاكم: قلت لأبي علي الحافظ: إن بعض الناس يقول في أبي العباس، قال: في ماذا؟ قلت: في تفرده بهذه المقحمات عن هؤلاء المجهولين. فقال: لا تشتغل بمثل هذا، أبو العباس إمام حافظ محله

محل من يسأل عن التابعين وأتباعهم.

قال أبـو أحمد بن عدي: هو صاحب معرفة وحفظ وتقدم في الصنعة، رأيت مشايخ بغداد يسيئون الثناء عليه، ثم إن ابن عدي قوى أمره، ومشَّاه.

كلام الأقران بعضهم في بعض لا يعول على كثير منه

حال الأقران فيما بينهم حال تستحق أن تفرد بالدراسة والبحث. فمنهم من يعظم أقرانه ويفضلهم عن نفسه، ومنهم من يكون خلاف ذلك. وهكذا يبتلي الله الناس ببعضهم البعض.

فهذا هشام بن يوسف يقول: كان عبدالرزاق أعلمنا وأحفظنا. قال الذهبي: هكذا كان النظراء يعترفون لأقرانهم بالحفظ.

فهذه صورة جميلة لحال الأقران المنصفين، وصورة أخرى لأقران كل منهما على مذهب، إلا أن الخلاف بينهما ما أفسد للود قضية:

وقيل كان ابن داود الظاهري خصما لابن سريج في المناظرة، كانا يترادّان في الكتب، فلما بلغ ابن سريج موت محمد بن داود، حزن له، ونحى مخادّه، وجلس للتعزية، وقال: ما آسى إلا على تراب يأكل لسانَ محمد بن داود.

فانظر إلى هؤلاء الأبرار مع طول المناظرة والمحاورة إلا أن القلوب لم تزدد إلا حبًّا وتعظيماً لبعضهما. فما بال أقوام تمتلىء قلوبهم حقدًا

وحنقًا على إخوانهم وأقرانهم على أقل محاورة وإقحام، ولَمَ يوغل المرء صدره ويمتلىء غلًا على أخيه فلا تراه إلا نكدًا ضيق الصدر يطلق لسانه في حق أخيه ولا ينصفه. فاتق الله يا أيها المتحامل على أخيك وكن زكي النفس واشرح صدرك لأخيك، واكسب محبته وتقديره. وكن كالليث بن سعد الإمام الحافظ شيخ الإسلام وعالم الديار المصرية الذي كان يحسن وصل إخوانه وأقرانه كالإمام مالك مع ما بينهما من طول مناظرة ومراسلة علمية.

قال قتيبة: كان الليث يستغل عشرين ألف دينار في كل سنة، وقال: ما وجبت عليَّ زكاة قط. وأعطى الليث ابن لهيعة ألف دينار، وأعطى مالكاً ألف دينار وأعطى منصور بن عمار الواعظ ألف دينار وجاريةً تَسْوى ثلاث مئة دينار.

وهو الذي قال فيه الشافعي: الليث أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به.

وفي مقابل هذه الصورة كان للإمام مالك أحد الأقران من العلماء الأجلاء وهو شيخ الإسلام الإمام محمد بن عبدالرحمن المعروف بابن أبي ذئب، وكان من أشد الناس صرامةً وقولاً للحق.

قال أحمد بن حنبل: بلغ ابن أبي ذئب أن مالكاً لم يأخذ بحديث «**البيعان بالخيار**» فقال: يستتاب، فإن تاب، وإلا ضربت عنقه. ثم قال أحمد: هو أورع وأقول بالحق من مالك.

قال الذهبي: لو كان ورعًا كما ينبغي، لما قال هذا الكلام القبيح في حق إمام عظيم. فمالك إنما لم يعمل بظاهر الحديث، لأنه رآه منسوخاً.

وقيل: عمل به وحمل قوله: «حتى يتفرقا» على التلفظ بالإيجاب والقبول، فمالك في هذا الحديث، وفي كل حديث له أجر ولابد، فإن أصاب، ازداد أجرًا آخر. وبكل حال فكلام الأقران بعضهم في بعض لا يعول على كثير منه، فلا نقصت جلالة مالك يقول ابن أبي ذئب فيه، ولا ضعف العلماء ابن أبي ذئب بمقالته هذه، بل هما عالما المدينة في زمانهما - رضي الله عنهما - ولم يسندها الإمام أحمد فلعلها لم تصح.

وإن لم يسندها الإمام أحمد إلا أنه عقب بقوله: هو أورع وأقول بالحق من مالك.

فالإمام ابن أبي ذئب قال قولة حق وهي أن الإمام مالك يستتاب، ويعلم ما الذي دعاه لهذا القول. فإن رفض حديث وحكم رسول الله ﷺ - وحاشاه - فيحكم عليه بما يحكم على عامة الناس. وهذا كي يعلم السامع والمتكلم عنده أن لا محاباة في أمور الدين..

أضف إلى ذلك الطبع المتأصل في ابن أبي ذئب: الصرامة والشدة في قول الحق، وقد تزداد حدتها بين الأقران كلما تقاربت صور التماثل.

فكل منهما مصيب - رحمهما الله تعالى - وتبقى رتبتيهما محفوظة بين

عامة الناس وبين خاصة العلماء في زمانهما أيهما أورع وأيهما أعلم وأتقن.

وبكل حال ـ كما قال الذهبي ـ فكلام الأقران بعضهم في بعض لا يعول على كثير منه.

ومن مثل هذا ما قاله مكحول: مازلت مضطلعاً على من ناوأني حتى عاونهم عليَّ رجاء بن حيوة، وذلك أنه كان سيد أهل الشام في أنفسهم.

قال الذهبي: كان ما بينهما فاسدًا، وما زال الأقران ينال بعضهم من بعض، ومكحول ورجاء إمامان، فلا يلتفت إلى قول أحد منهما في الآخر.

ويروى عن رجاء بن حيوة، قال: من لم يوآخ إلا من لا عيب فيه قلَّ صديقه، ومن لم يرض من صديقه إلا بالإخلاص له دام سخطه، ومن عاتب إخوانه على كل ذنب كثر عدوه.

فيا سبحان الله ما الذي يتسلل إلى نفوس الأقران خفية دون أن يشعروا. ومع هذا يظن الأخ أنه منصف مع أخيه؟!

فيا عبدالله أحسن الظن بأخيك وعليك بما قاله رجاء بن حيوة وأعمل به تبق سعيدًا هنيئاً.

❊ كف من حظ خير من جراب من علم

عن الليث بن سعد قال: رأيت أبا الزناد وخلفه ثلاث مئة تابع من طالب فقه وشعر وصنوف، ثم لم يلبث أن بقي وحده، وأقبلوا على ربيعة، وكان ربيعة يقول: شبر من حُظوة خير من باع من علم.

عن أبي حنيفة قال: قدمت المدينة، فأتيت أبا الزناد، ورأيت ربيعة فإذا الناس على ربيعة، وأبو الزناد أفقه الرجلين، فقلت له: أنت أفقه أهل بلدك والعمل على ربيعة؟ فقال: ويحك كف من حظ خير من جراب من علم.

وهكذا ابتلى الله الإمام بالإمام. فعلم الإمام أبو الزناد أن الله مقسم الأرزاق والمراتب، فذاك يلزمه الشكر وبذل الجهد في ما أنعم الله عليه، وهذا يلزمه الصبر على ما حرمه الله منه وأن ينظر إلى أبواب خيرٍ أخرى فيسلكها والعاقبة للمتقين.

ولما رأى ربيعة أن أبا الزناد يهلك بسببه ما وسعه السكوت، فأخرجوا أبا الزناد وقد عاين الموت وذبل، ومالت عنقه. نسأل الله السلامة.

وروى الليث بن سعد، عن ربيعة بن أبي عبدالرحمن قال: أما أبو الزناد، فليس بثقة ولا رضي.

قال الذهبي: انعقد الاجماع على أن أبا الزناد ثقة رضي.

ولا شك أن أمراً خفيًّا تسلل إلى صدره فاختل ميزان الإنصاف

على أخيه هذا. فلم يعد يرى محاسنة وانحجبت عنه فضائله، ولم ير سوى عيوبه وزلاته فحكم عليه بهذا الحكم الجائر فخالف فيه إجماع أهل الإنصاف من هذه الأمة.

قال إبراهيم بن المنذر الحزامي أبو الزناد كان سبب جلد ربيعة الرأي، ثم ولي بعد ذلك المدينة فلان التيمي، فأرسل إلى أبي الزناد، فطين عليه بيته، فشفع فيه ربيعة.

قلت: تؤول الشحناء بين القرناء إلى أعظم من هذا.

من أجل هذا كان الخليفة العباسي أبو العباس السفاح إذا علم بين اثنين تعاديا لم يقبل شهادة ذا على ذا، ويقول: العداوة تزيل العدالة.

وقد يحدث خلاف داخل مجموعة واحدة فيها عدة أقران:

فالبويطي الإمام العلامة صاحب الإمام الشافعي لازمه مدة، وتخرج به، وفاق الأقران قال الشافعي: ليس في أصحابي أحد أعلم من البويطي.

عن الربيع بن سليمان قال: كان البويطي حين مرض الشافعي بمصر هو وابن عبدالحكم والمزني. فتنازعوا الحلقة، فبلغ ذلك الشافعي، فقال: الحلقة للبويطي. فلهذا اعتزل ابن عبدالحكم الشافعي وأصحابه، وكانت أعظم حلقة في المسجد.

وقد يقع ما يقع بين الأقران لذا لا ينبغي أن يسمع طعن بعضهم

في بعض واستمع إلى ما يقول الذهبي.

استفق، ويحك، وسل ربك العافية، فكلام الأقران بعضهم في بعض أمر عجيب، وقع فيه سادة، فرحم الله الجميع.

ومات الإمام البويطي في قيده مسجوناً بالعراق سنة إحدى وثلاثين ومئتين.

فاتق الله يا من تسلل إلى قلبه حب الرئاسة حتى أعمته عن حقوق الأخوة ففرطت بها وجاوزت فآذيت وظلمت والظلم ظلمات يوم القيامة. فماذا ستقول للرب جل وعلا عما اقترفه لسانك وما هو مبررك لظلم أخيك؟.. أرأيت إن كان هو ظالمك وغير منصفك حتى آذاك بين الناس ما يكون جوابك ورد الفعل عندك أتسامحه أم تعاقبه أم ستعامله بما عاملك به؟

فارض بما قسمه الله لك. وادع لأخيك بالتوفيق، وقابل سيئته بالحسنة منك. ولا تشغل نفسك بالرد عليه واستبق الخيرات فأبوابها كثيرة وأما قول الأئمة إن كلام الأقران بعضهم في بعض لا يعول عليه إلا لعلمهم ما للمعاصرة والتنافس من إفساد المودة والأخوة بين المتعاصرين.

والخطأ قد يكون من طرف واحد لا من الطرفين، فواحد ينتقص والآخر منتقص منه.

فقد يمن الله، على المتأخر بالهداية والإلتزام والإسلام وقد سبقه

منافسه بالهداية والإسلام ثم هو اليوم يشاركه مرتبته العلمية والدعوية، والتفاف الخاصة والعامة حول دروسه وأطروحاته وكتبه على المستوى الكبير أو قيادة مجموعة صغيرة من الدعاة. فيتسلل مرض الأقران إلى السابق دون أي يتسبب اللاحق في ذلك المرض من طريق مباشر بكلمة أو تصرف استفزازي من جانبه أو من جانب قيادتها. فينبغي أن يعلم السابق أن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. وأن ذلك أيضاً بسبب اجتهاد وإخلاص من اللاحق فليتق الله ذلك العبد وليحب لأخيه ما يحب لنفسه، وليعلم أيضاً أن سبقه إلى الخير محفوظ ولن ينسى أبداً.

* ولكن هل كل كلام الأقران في بعضهم لا يقبل؟

قال أبو بكر المروزي: ذكر أحمد بن حنبل هشام بن عمار، فقال: طياش خفيف. وهشام بن عمار بن نصر إمام حافظ علامة مقرىء، عالم أهل الشام، خطيب دمشق. فقال الذهبي بعد بيان سبب قولة الإمام أحمد في الإمام الحافظ هشام بن عمار وبكل حال كلام الأقران بعضهم في بعض يحتمل، وطيه أولى من بثه إلا أن يتفق المتعاصرون على جرح شيخ، فيعتمد قولهم، والله أعلم.

وقد طويت ذكر سبب قولة الإمام أحمد، وإن كانت لا تؤثر في رتبة الإمام الحافظ ابن عمار، استجابة لطلب الإمام الذهبي، ولن نقبل بعد ذلك حكم أخ على أخ أو شيخ على شيخ إن كانا من الأقران

أو من أقاليم وجماعات مختلفة إلا بالدليل الواضح والحجة الساطعة وبعدما يذكر محاسن خصمه ومرتبته كي ننصف المتكلم والخصم وننصف أنفسنا بأن نوزن الحق ونألف بينهما ما استطعنا.

وعليه فكلام الأقران المتخاصمين في بعضهم لا يسمع..

وكما اختل الميزان بسبب العداوة فقد يختل الميزان بسبب الغلو في المحبة والانتماء، فتجد بعض الإخوة لا يرضى أن يسمع كلمة حق تُخطِّىء قرينه أو جماعته، فكل ما عليه هذا الأخ سليم صحيح لا يشوبه أدنى خطأ، وعلى المقابل معاملة قرينه بالمثل، خاصة إن كان من مدينة واحدة أو جماعة واحدة أو انتماءٍ واحدٍ أيًّا كان شكله.

وعليه فكلام الأقران المتعصبين لبعضهم البعض لا يسمع أيضاً.

قال أبو طاهر السِّلفي: سمعت أبا العلاء محمد بن عبدالجبار الفرساني يقول: حضرت مجلس أبي بكر بن أبي علي الذكواني المعدل في صغري مع أبي، فلما فرغ من إملائه، قال إنسان: من أراد أن يحضر مجلس أبي نعيم، فليقم. وكان أبو نعيم في ذلك الوقت مهجوراً بسبب المذهب، وكان بين الأشعرية والحنابلة تعصُّب زائد يؤدي إلى فتنة[1]، وقيل وقال، وصداع طويل، فقام إليه أصحاب الحديث بسكاكين الأقلام، وكاد الرجل يقتل.

(١) هذا زمن الذهبي.. فكيف بزمانك؟!!

قال الذهبي: قد كان أبو عبدالله بن مندة يقذعُ في المقال في أبي نعيم لمكان الاعتقاد المتنازع فيه بين الحنابلة وأصحاب أبي الحسن، ونال أبو نعيم أيضًا من أبي عبدالله في «تاريخه». وقد عرف وهن كلام الأقران المتنافسين بعضهم في بعض. نسأل الله السماح.

وبلغ بهم الحال إلى أشد من ذلك إلى صورة من صور الحزبية المقيتة التي نراها بين كثير من الشباب الملتزم اليوم.

عن يحيى بن منده قال: سمعت عمي عبدالرحمن، سمعت محمد بن عُبيد الله الطبراني يقول: قمت يوماً في مجلس والدك ـ رحمه الله ـ فقلت: أيها الشيخ: فينا جماعة ممَّن يدخل على هذا المشؤوم ـ أعني أبا نعيم الأشعريَّ ـ فقال: أخرجوهم. فأخرجنا من المجلس فلاناً وفلاناً ثم قال: على الداخل عليهم حرج أن يدخل مجلسنا، أو يسمع منا، أو يروي عنا، فإن فعل فليس هو منا في حل!!

قال الذهبي ـ رحمه الله تعالى ـ: ربما آل الأمر بالمعروف بصاحبه إلى الغضب والحِدَّة، فيقع في الهجران المحرم، وربما أفضى إلى التكفير والسعي في الدم، وقد كان أبو عبدالله وافر الجاه والحرمة إلى الغاية ببلده، وشغب على أحمد بن عبدالله الحافظ، بحيث إنَّ أحمد اختفى!!

وابن منده إذا روى الحديث وسكت، أجاد، وإذا بوَّب أو تكلم من عنده، انحرف وخرفش.. بلى ذنبه وذنب أبي نعيم أنهما يرويان

الأحاديث الساقطة والموضوعة ولا يهتكانها . . نسأل الله العفو.

❊ من نشأ في إقليم متعصب من أين يقع له الإنصاف؟

وقد يزداد الأمر سوءًا إذا عم التعصب أهل إقليم أو مدينة بكاملها إما لنسب أو لكبر أو استعمال أمراء وقادة هذا الإقليم أساليب تدعو إلى التعصب للوطن أو التراب أو شخوصهم . . فيختل ميزان الانصاف اختلالاً شديدًا يجرُّ معه الظلم والهوى.

فعلى المسلم أن يسيطر على انفعالات الأحداث في إقليمه ولا يظلم الآخرين، أو يغلو في تعظيم أهل إقليمه ويسكت على أخطائهم وانحرافاتهم مجاملة لهم أو خوفًا من إبعاده والنفور منه.

ولعل في الخلاف القائم بين أتباع علي ـ رضي الله عنه ـ وبين مخالفيه أتباع معاوية ـ رضي الله عنه ـ ما يوضح كيف أن المرء يتأثر ميزانه بما حوله من انفعالات وما يغرس في قلبه من مبررات وتوجهات وإثارات.

قال الذهبي: في عبارات مليئة بإنصاف جميع الفئات: خلف معاويةَ خلقٌ كثير يحبونه ويتغالون فيه ويفضلونه، إما قد ملكهم بالكرم والحلم والعطاء، وإما قد ولدوا في الشام على حبه، وتربى أولادهم على ذلك، وفيهم جماعة يسيرة من الصحابة، وعدد كثير من التابعين والفضلاء، وحاربوا معه أهل العراق، ونُشِّؤوا على النصب، نعوذ بالله من الهوى. كما قد نشأ جيش علي ـ رضي الله عنه ـ، ورعيته

- إلا الخوارج منهم - على حبه والقيام معه، وبغض من بغى عليه والتبري منهم، وغلا خلق منهم في التشيع. فبالله كيف يكون حال من نشأ في إقليم، لا يكاد يشاهد فيه إلا غالياً في الحب، مفرطاً في البغض، ومن أين يقع له الإنصاف والاعتدال؟ فنحمد الله على العافية الذي أوجدنا في زمانٍ قد انمحص فيه الحق، واتضح من الطرفين، وعرفنا مآخذ كل واحد من الطائفتين وتبصرنا، فعذرنا، واستغفرنا، وأحببنا باقتصاد، وترحمنا على البغاة بتأويل سائغ في الجملة، أو بخطأ إن شاء الله مغفور، وقلنا كما علمنا الله ﴿**ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلًّا للذين آمنوا**﴾ [سورة الحشر آية: ١٠] وترضينا أيضًا عمن اعتزل الفريقين، كسعد بن أبي وقاص، وابن عمر، ومحمد بن مسلمة، وسعيد بن زيد، وخلق. وتبرأنا من الخوارج المارقين الذين حاربوا عليًّا، وكفروا الفريقين، فالخوارج كلاب النار، قد مرقوا من الدين، ومع هذا فلا نقطع لهم بخلود النار، كما نقطع به لعبدة الأصنام والصلبان.

من نواقض الإنصاف المبالغة والمجازفة والفظاظة والهوى والبغي

إن مما يسيء إلى الإنصاف الظلم والجهل الذي يؤدي بأهله إلى صور من صور عدم التوازن والانضباط كالمبالغة والمجازفة والفظاظة والهوى والبغي.

وسترى في الصفحات التالية صورًا يقع فيها كثير ممن حولك كما وقع فيها السابقون. ومنها:

* عدم إنصاف أهل الصلاح وإخراج أحكام لا يقبلها منصف عاقل:

مثل قول ميمون بن مهران لمن حوله: لو نُشِرَ فيكم رجل من السلف ما عرف إلا قبلتكم.

وقول معاوية بن قره: أدركت سبعين من الصحابة، لو خرجوا فيكم اليوم، ما عرفوا شيئاً مما أنتم فيه إلا الأذان.

فهذا القول الذي تسمعه أيضًا من بعض المعاصرين فيه ظلم

لأهل الصلاح ومجانبة لحقيقة تاريخية ذكرها العلماء عن اتباع كثير من العلماء للسنة والأثر واتباع العامة لمبادىء الإسلام وتفاوتهم في أعمال الخير. وهو أيضًا مخالف لحديث: لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين باتباع السنة وما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم.

ومثل هذا القول قول من لا ينصف الدعوة الإسلامية المعاصرة ورجالها. بأنها فاشلة ولم تحقق النصر مع القاعدة العريضة التي تؤيدها.. فالسكوت واجب إذا لم تُرَ تلك الخطوات العريضة والمتقدمة والعليا التي بلغتها الدعوة الإسلامية وأتباعها في كثير من دروب الحياة وكيف أنها انتصرت في مواطن كثيرة ليس للسلاح فيها دور.

ومنهم من ينظر للأمور بنظرة يأس فيعمم فشل الدعوة عند بعض الطوائف ولا يتفاءل بأن الدعوة أصبح لها مواقع متقدمة عند كثير من الطوائف الأخرى.

ومن الدعاة من يصف إخوانه دوماً بأنهم لا شيء من الناحية العلمية والعملية والدعوية والأخلاقية وما أنصفهم بأنهم إن قصروا في جانب فقد أحسنوا في جوانب أخرى قد يكون هو نفسه مقصر فيها.

والمقصود أن المبالغة في اتهام الصالحين والدعاة من قبل إخوانهم فضلاً عن عدم إنصافهم أسلوب من أساليب تثبيط الهمم وخلق

العجز في نفوس العاملين للإسلام.

وفي مقابل هذه الصورة تجد من يجازف في **انتقاص بعض العلماء ورفع مكانة الوضعاء والصغار من أهل بلده وجماعته**.

عن مغيرة قال: حجَّ حماد بن أبي سليمان، فلما قدم أتيناه نسلم عليه فقال: أبشروا يا أهل الكوفة، فإني قدمت على أهل الحجاز، فرأيت عطاء وطاووساً ومجاهداً، فصبيانكم بل صبيان صبيانكم أفقه منهم.

قال مغيرة: فرأينا أن ذاك بغي منه.

ولقد رأينا من بعض المتعصبين من يغلو فيمن ينتمي إليه ويحقر العلماء والوجهاء وكل من لا ينتمي إليه.

* ومن المجازفة الحكم على الرجال بما يخالف أقوال الأئمة:

قول ابن سعد عن الإمام زفر لم يكن في الحديث بشيء.

قال الذهبي: قد حكم له إمام الصنعة [يحيى بن معين] بأنه ثقة مأمون.

* ومن المجازفة مخالفة إجماع الأئمة:

ذكر العقيلي في كتاب «الضعفاء» له، في ترجمة عبدالرزاق: حدثنا محمد بن أحمد بن حماد، سمعت محمد بن عثمان الثقفي،

قال: لما قدم العباس بن عبدالعظيم من عند عبدالرزاق من صنعاء، قال لنا ـ ونحن جماعة ـ ألست قد تجشمت الخروج إلى عبدالرزاق، فدخلت إليه، وأقمت عنده حتى سمعت منه ما أردت؟ والله الذي لا إله إلا هو، إن عبدالرزاق كذاب، والواقدي أصدق منه.

قلت: ـ الذهبي ـ بل والله ما برَّ عباسٌ في يمينه، ولبئس ما قال، يعمد إلى شيخ الإسلام، ومحدث الوقت، ومن احتج به كل أرباب الصحاح ـ وإن كان له أوهام مغمورة، وغيره أبرع في الحديث منه ـ فيرميه بالكذب. ويقدم عليه الواقدي الذي أجمعت الحفاظ على تركه، فهو في مقالته هذه خارق للإجماع بيقين.

وهذا سعيد بن عفير الإمام الحافظ الثقة أبو عثمان المصري من موالي الأنصار ولد سنة ١٤٦ ومات سنة ٢٢٦.

قال فيه ابن عدي: هو عند الناس ثقة، ثم ساق قول أبي إسحاق السعدي الجوزجاني: فيه غير لون من البدع، وكان مُخلِّطًا غير ثقة، فهذا من مجازفات السعدي.

قال ابن عدي: هذا الذي قاله السعدي لا معنى له، ولم أسمع أحداً، ولا بلغني عن أحد كلام في سعيد بن عفير، وقد حدث عنه الأئمة، إلا أن يكون السعدي أراد به سعيد بن عُفير آخر. وقال يحيى بن معين: **رأيت بمصر ثلاث عجائب: النيل، والأهرام، وسعيد بن عُفير.**

قلتُ: حسبك أن يحيى إمام المحدثين انبهر لابن عفير. وقال أبو سعيد بن يونس: كان سعيد من أعلم الناس بالأنساب، والأخبار الماضية، وأيام العرب والتواريخ، كان في ذلك كله شيئاً عجيباً، وكان مع ذلك أديباً فصيحاً، حسن البيان، حاضر الحجة، لا تُمل مجالسته، ولا يُنزف علمه.

* وقد تسمع مجازفات من البعض تتعجب كيف تلفظ بها صاحبها:

قال أحمد بن علي السليماني الحافظ عن الزبير بن بكار العلامة الحافظ قاضي مكة وعالمها ابن عبدالله بن مصعب بن ثابت بن عبدالله بن الزبير بن العوام (ولد سنة ١٧٢ ومات سنة ٢٥٦ بمكة) قال عنه: منكر الحديث!!

قال الذهبي: كذا قال.. ولا يدري ما ينطق به!!

ونقل الذهبي سيرة أبي الفرج ابن الجوزي الشيخ الإمام العلامة، الحافظ المفسر، شيخ الإسلام، مفخر العراق جمال الدين عبدالرحمن بن علي القرشي الحنبلي، الواعظ صاحب التصانيف المولود سنة تسع أو عشر وخمس مئة.

وقال الحافظ سيف الدين ابن المجد: هو كثير الوهم جدًّا، سمعت ابن نقطة يقول: قيل لابن الأخضر: ألا تجيب عن بعض

أوهـام ابن الجوزي؟ قال: إنما يتتبع على من قل غلطه، فأما هذا فأوهامه كثيرة.

ثم قال السيف: ما رأيت أحداً يعتمد عليه في دينه وعلمه وعقله راضياً عنه.

قال الذهبي: إذا رضي الله عنه، فلا اعتبار بهم.

* ومن المجازفة المبالغة في المقارنة بين العلماء:

قال أبـوعبيد: ما رأيت أحداً أعقل من الشافعي، وكذا قال يونس بن عبدالأعلى، حتى أنه قال: لو جمعت أمة لوسعهم عقله.

قلت: ـ الذهبي ـ هذا على سبيل المبالغة، فإن الكامل العقل لو نقص من عقله نحو الربع، لبان عليه نقص ما، ولبقي له نظراء، فلو ذهب نصف ذلك العقل منه، لظهر عليه النقص، فكيف به لو ذهب ثلثا عقله! فلو أنك أخذت عقول ثلاثة أنفس مثلاً، وصيرتها عقلَ واحدٍ، لجاء منه كامل العقل وزيادة.

وعن محمـد بن مصعب العـابد، قال: لسوط ضربه أحمد بن حنبل في الله أكبر من أيام بشر بن الحارث.

قلت: ـ الذهبي ـ بشر عظيم القدر كأحمد، ولا ندري وزن الأعمال، إنما الله يعلم ذلك.

وهذه لفتة مهمة من الذهبي للمسلمين لا ندري وزن الأعمال،

إنما الله يعلم ذلك.

فقد يكون العابد الزاهد حسن الخلق خيراً من بعض الكتاب والباحثين والمفكرين والمنظرين، ولا يشترط أن يكون الداعية الذي عذب خيراً من معلم الناس الدين فلا داعي للحكم لناس بأعيانهم أنهم خير من دعاة آخرين عند الله.

وليحذر الداعية أن يظن أنه خير من أناس آخرين ممن حوله من الدعاة وعامة الناس. فقد يكون هذا العامي خيراً من الداعية لعمل يعمله لا يعلمه إلا الله.

وكرر هذا التنبيه في ترجمة مسلم بن يسار، القدوة، الفقيه، الزاهد.

قال ابن عون: لما وقعت الفتنة زمن ابن الأشعث، خف مسلم فيها، وأبطأ الحسن، فارتفع الحسن، واتضع مسلم.

إنَّما يُعتبر ذلك في الأخوة، فقد يرتفعان معاً.

وتعجب من مقارنة بعض الدعاة لبعض العاملين ممن حولهم ففلان يساوي خمسة من فلان عند الله ومن أدراه؟ أهو يعلم الغيب؟!

إن هذه المجازفة والمبالغة في التهوين من شأن الآخرين دون بيان الحق وإنصاف لهم مما يوسع الأخاديد بين الطوائف المختلفة.

ومن المجازفة أيضاً: المبالغة في تقديس الرجال وتعظيمهم.

عن رجل قال: عندنا بخراسان يظنون أن أحمد بن حنبل لا يشبه البشر يظنون أنه من الملائكة.

وقال آخر: نظرة عندنا من أحمد تعدل عبادة سنة.

فما هذه المجازفة والمبالغة في تعظيم العلماء.. حتى أن البعض يحفظ أقوال أئمة ويرددها أكثر من القرآن الكريم، ويعظم سيرهم وما جرى لهم أكثر من دراسة سيرة الرسول ﷺ. وما قاله لا محيد عنه ولا مناص عند أتباعه ولو خرج فيهم هذا العالم لقال إني بريء مما تزعمون وتبالغون.

* ومن المجازفة الكلام بهوى وبلا حجة:

كما نال من زكريا بن عدي الإمام الحافظ الثبت مولاهم الكوفي أبو نعيم الكوفي بلا حجة، وقال: ماله وللحديث؟ هو بالتوراة أعلم.

قال ابن سعد: هو من موالي تيم الله، وكان رجلاً صالحًا ثقة.

* ومن المجازفة رد بعض النصوص لهوى أو شبهة:

ومنها ما ذكره الذهبي في سيرة الوحاظي الإمام العالم الحافظ الفقيه، أبو زكريا، يحيى بن صالح الوحاظي الدمشقي، وقيل الحمصي المتوفى سنة ٢٢٢.

قال يحيى بن معين ثقة.

وممن وثقه ابن عدي وابن حبان، وغمزه بعض الأئمة لبدعة فيه، لا لعدم إتقانه.

قال أحمد بن حنبل: أخبرني رجل من أصحاب الحديث أن يحيى بن صالح قال: لو ترك أصحاب الحديث عشرة أحاديث ـ يعني هذه التي في الرؤية ـ ثم قال أحمد: كأنه نزع إلى رأي جهم.

قلت: والمعتزلة تقول: لو أن المحدثين تركوا ألف حديث في الصفات والأسماء والرؤية، والنزول، لأصابوا. والقدرية تقول: لو أنهم تركوا سبعين حديثاً في إثبات القدر.

والرافضة تقول: لو أن الجمهور تركوا من الأحاديث التي يدَّعون صحتها ألف حديث لأصابوا، وكثير من ذوي الرأي يردّون أحاديث شافه بها الحافظ المفتي المجتهد أبو هريرة رسول الله ﷺ، ويزعمون أنه ما كان فقيهاً، ويأتوننا بأحاديث ساقطة، أو لا يعرف لها إسنادٌ أصلاً محتجين بها.

قلنا: [أي الذهبي]: ولكل موقف بين يدي الله تعالى: يا سبحان الله! أحاديث رؤية الله في الآخرة متواترة، والقرآن مصدق لها، فأين الإنصاف؟

* ومن المجازفة قلة ورع اللسان لهوى المذهب

قيل للفضيل: ما الزهد؟ قال: القنوع، قيل: ما الورع؟ قال: اجتناب المحارم. قيل: ما العبادة؟ قال: أداء الفرائض. قيل: ما

التواضع؟ قال: أن تخضع للحق وقال: أشد الورع في اللسان.

وقال مسعود السجزي: سمعت أبا عبدالله الحاكم يقول: أجمعت الأمة على أن القتبي كذاب.

قلت ـ الذهبي ـ: هذه مجازفة وقلة ورع، فما علمت أحدًا اتهمه بالكذب قبل هذه القولة، بل قال الخطيب: إنه ثقة.

عن حماد الحراني أنه سمع السِّلفي ينكر على الحاكم في قوله: لا تجوز الرواية عن ابن قتيبة. ويقول: ابن قتيبة من الثقات، وأهل السنة. ثم قال: لكن الحاكم قصده لأجل المذهب.

قلت: عهدي بالحاكم يميل إلى الكرامية، ثم ما رأيت لأبي محمد في كتاب «مشكل الحديث» ما يخالف طريقة المثبتة والحنابلة، ومن أن أخبار الصفات تمر ولا تتأول، فالله أعلم.

هذا الكلام والافتراء على ابن قتيبة لا يقبله عاقل ولا منصف.

وما هذا المسلك إلا لدفع الناس لرفض ما يقوله من قول يخالف مذهب المفتري.

وللناس أسلوبان لإسقاط منهج ما:

أما الأول: الهجوم على المبدأ نفسه ووصفه بأوصاف مستقبحة بأنه يخالف عادات الناس ودينهم الذي تلقوه عن آبائهم وعلمائهم ـ زعموا ـ أو أنه يخالف العقل السليم بإثارة شبهات، أو التهوين من برامج هذا المنهج والدعوة إلى برامج تناسب المخالف وهذا الأسلوب

فيه شيء من الصعوبة، إذ ينفضح بعد حين عور المتكلم به فيلجأ غالبًا إلى الأسلوب الثاني وهو: الهجوم على صاحب المنهج والبحث عن عيب فيه، وإبرازه والمبالغة فيه، ووصفه ووصمه بما لا يحبه الناس فينفضوا عنه، وعما يقول، فتصم آذانهم عن دعوته. وإن لم يُجد هذا الأسلوب يصدر القرار بمنع السماع من هذا المخالف!!

* هذا كلام بهوى

القيرواني، أبو عبدالله محمد بن محمد التميمي، المعروف بابن أبي كوية علامة أصولي، تصدر لإقراء الأصول، وكان متعصباً لمذهب الأشعري. توفي سنة ٥١٢ عن نحو تسعين سنة.

قال ابن عقيل فيه: هو شيخ هش، حسن العارضة، جاري العبارة، حُفَظَةٌ متدين صَلِف، تذاكرنا، فرأيته مملوءًا علمًا وحفظًا.

قال السلفي: كان مشاراً إليه في الكلام، قال لي: أنا أدرس الكلام، من سنة ثلاث وأربعين، جرت بينه وبين الحنابلة فتن وأوذي غاية الإيذاء، سألته عن مسألة الاستواء، فقال: أحد الوجهين للأشعري أنه يحمل على ما ورد ولا يفسر.

قال ابن ناصر وجماعة: كان أصحاب القيرواني يشهدون عليه أنه لا يصلي ولا يغتسل من جنابة في أكثر أحواله، ويرمى بالفسق مع المرد واشتهر بذلك، وادعى قراءةَ القرآن على ابن نفيس.

قال الذهبي: هذا كلام بهوىً.

* من أحالك على غائب لم ينصفك فكيف بمن أحال على مستحيل؟

عدم المبالغة في تعظيم أئمة آل البيت رضوان ربي عليهم.

قال الذهبي في ترجمة المنتظَر: الشريف، أبو القاسم، محمد بن الحسن العسكري بن علي الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضى بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن علي بن الحسين الشهيد بن الإمام علي بن أبي طالب.

خاتمة الاثني عشر سيداً، الذين تدعي الإمامية عصمتهم ـ ولا عصمة إلا لنبي ـ ومحمد هذا هو الذي يزعمون أنه الخلف الحجة، وأنه صاحب الزمان، وأنه صاحب السرداب بسامراء، وأنه حي لا يموت، حتى يخرج، فيملأ الأرض عدلاً وقسطاً، كما ملئت ظلماً وجورًا، فوددنا ذلك ـ والله ـ وهم في انتظاره من أربع مئة وسبعين سنة.

ومن أحالك على غائبٍ لم ينصفْك، فكيف بمن أحال على مستحيل؟! والإنصاف عزيز. فنعوذ بالله من الجهل والهوى.

فمولانا الإمام علي: من الخلفاء الراشدين، المشهود لهم بالجنة ـ رضي الله عنه ـ نحبه أشد الحب، ولا ندعي عصمته، ولا عصمة أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ.

وابناه الحسن والحسين: سبطا رسول الله ﷺ، وسيدا شباب أهل الجنة ولو استخلفا لكانا أهلاً لذلك.

وزين العابدين: كبير القدر، من سادة العلماء العاملين، يصلح للإمامة، وله نظراء، وغيره أكثر فتوى منه، وأكثر رواية. وكذلك ابنه أبو جعفر الباقر: سيد، إمام، فقيه، يصلح للخلافة. وكذا ولده جعفر الصادق: كبير الشأن من أئمة العلم، كان أولى بالأمر من أبي جعفر المنصور. وكان ولده موسى: كبير القدر جيد العلم، أولى بالخلافة من هارون، وله نظراء في الشرف والفضل، وابنه علي بن موسى الرضا: كبير الشأن، له علم وبيان، ووقْعٌ في النفوس، صيره المأمون ولي عهده لجلالته، فتوفي سنة ثلاث ومئتين. وابنه محمد الجواد: من سادة قومه، لم يبلغ رتبة آبائه في العلم والفقه، وكذلك ولده الملقب بالهادي: شريف جليل. وكذلك ابنه الحسن بن علي العسكري. رحمهم الله تعالى.

فأما محمد بن الحسن هذا: فنقل أبو محمد بن حزم: أن الحسن مات من غير عقب، قال: وثَبتَ جمهور الرافضة على أن للحسن ابنا أخفاه.

وممن قال: إن الحسن العسكري لم يعقب: محمد بن جرير الطبري، ويحيى بن صاعد، وناهيك بهما معرفة وثقة.

* ضبط ألفاظ المبالغة والمجازفة:

من الصفات التي يتسم بها المنصف ضبط ألفاظه ودقتها وحسن اختيار الكلمة أو الوصف المناسب الصادق ـ دون مجاملة أو ظلم وهوى وحين لا يلتزم المتكلم هذا الشرط كما رأينا في الأمثلة السابقة من المبالغة والمجازفة في وصف الآخرين أو وصف عمل وما شابه يختل الإنصاف المطلوب.

وهنا ذكر لبعض الألفاظ والمواعظ المبالغ فيها من أجل أن يعتاد المسلم أن يقوّم ألفاظه وألفاظ بعض الوعاظ أو الدعاة خاصة حين حماسهم ونشوتهم، فتجده لا ينصف السامع ويضيق عليه ويسيء إلى المبدأ والموعظة.

قال محمود بن والان: سمعت عبدالرحمن بن بشر، سمعت ابن عيينة يقول: غضب الله داء لا دواء له.

قال الذهبي: دواؤه كثرة الاستغفار بالأسحار، والتوبة النصوح.

ومن مَليحِ قولِ شهر: من ركب مشهوراً من الدواب، ولبس مشهوراً من الثياب، أعرض الله عنه، وإن كان كريماً.

قال الذهبي: من فعله ليعز الدين، ويرغم المنافقين، ويتواضع مع ذلك للمؤمنين، ويحمد رب العالمين، فحسن.

ومن فعله بذخاً وتيهاً وفخراً أذله الله وأعرض عنه، فإن عوتب

ووعظ فكابر وادعى أنه ليس بمختالٍ ولا تياه فأعرض عنه فإنه أحمق، مغرور بنفسه.

* أعط القوس باريها:

عبدالخالق بن منصور: سمعت ابن الرومي، يقول: ما رأيت أحدًا قط يقول الحق في المشايخ غير يحيى، وغيره كان يتحامل بالقول.

قلت: هذا القول من عبدالله بن الرومي غير مقبول، وإنما قاله باجتهاده، ونحن لا ندعي العصمة في أئمة الجرح والتعديل، لكن هم أكثر الناس صواباً، وأندرهم خطأ، وأشدهم إنصافاً وأبعدهم عن التحامل، وإذا اتفقوا على تعديل أو جرح، فتمسك به، واعضض عليه بناجذيك، ولا تتجاوزه، فتندم. ومن شذ منهم. فلا عبرة به، فخل عنك العناء، وأعط القوس باريها، فوالله لولا الحفاظ الأكابر، لخطبت الزنادقة على المنابر، ولئن خطب خاطب من أهل البدع فإنما هو بسيف الإسلام وبلسان الشريعة وبجاه السنة وبإظهار متابعة ما جاء به الرسول ﷺ فنعوذ بالله من الخذلان.

اسمعها يا عبدالله يا من غلوت في شيخك، وشهرت بدعاة أهل السنة فلم تبق ولم تذر من مبالغة ومجازفة وهوى، قد يصل إلى حد الكذب، حتى ينفر الناس من دعاة العقيدة.. فمن سيبقى من الدعاة إن أسقط دعاة أهل السنة لهوى وعصبية عندك.

أما علمت أن ما صنعت سيروجه الضالون وأهل البدع والعلمانيون ويقولون منكم وفيكم، ومن أفواهكم ندينكم. فبماذا سنجيبهم؟

فضلاً عن شق صف دعاة أهل السنة وانشغال البعض في الجدال العقيم. وكل هذا بسبب مجازفاتك وبغيك على حُماة العقيدة، بدلاً من وضع يدك بأيديهم فترفع من الحق الذي عندهم وتنصفهم.. نسأل الله جمع كلمة دعاة أهل السنة ونعوذ به من الخذلان.

* المبالغة من حسن نية:

قال الصولي: حدثنا أحمد بن يحيى أن الشعبي قال: أفخر بيت قيل قولُ الأنصار يوم بدر:

وبِبِئْر بدر إذ يردُّ وجوههم
جبريلُ تحت لوائِنا ومحمدُ

ثم قال الصولي: أفخر منه قول الحسن بن هانىء في علي بن موسى الرضي:

قيل لي أنت واحدُ الناس في كـ
ـلِّ كلام من المقالِ بَدِيه
لك في جوهر الكلام بديعٌ
يثمر الدرَّ في يدي مجتنيه

فعـــلام تركـــتَ مدح ابـــن موســـى
بالخـــصـــالِ الـــتي تجمَّـــعـــن فيه
قلت لا أهـــتـــدي لمدح إمـــام
كان جبريلُ خادمـــاً لأبـــيه

قال الذهبي: لا يسوغ إطلاق هذا الأخير إلا بتوقيف، بل كان جبريل معلم نبينا ﷺ، وعليه.

* من الإنصاف الدقة في فهم الألفاظ والفروق:

قال ضمرة: سمعت مالكاً يقول: إنما كانت العراق تجيش علينا بالدراهم والثياب، ثم صارت تجيش علينا بسفيان الثوري، وكان سفيان يقول: مالك ليس له حفظ.

قال الـذهبي: هذا يقـولـه سفيان لقـوة حافظته بكثرة حديثه ورحلته إلى الآفاق، وأما مالك، فله إتقان وفقه، لا يدرك شأوه فيه، وله حفظ تام، فرضي الله عنهما.

وأما قول ابن مهدي: لم يكن بالحافظ، عن الفضيل بن عياض فمعناه: لم يكن في علم الحديث كهؤلاء الحفاظ البحور، كشعبة، ومالك وسفيان، وحماد، وابن المبارك، ونظرائهم، لكنه ثبت قيم بما نقل، ما أخذ عليه في حديث فيما علمت. وهل يراد من العلم إلا ما انتهى إليه الفضيل ـ رحمة الله عليه ـ.

وعليه فلا يعني قولنا عن عالم أنه ليس بعالم وبحر في فن من فنون العلم أنه جاهل فيه، أو أنه لا يستفتى فيه، فقد يكون أعلم أهل بلاده لكنه ليس بأعلم الناس.

وقد يكون هذا المنتقص للعالم أجهل ما يكون بحال هذا العالم والعلم ومع ذلك تجرأ وحكم على العالم بأنه ليس أهلاً لتعليم الناس وتوجه طلبة العلم إليه.

والعالم إن جهل علما أو لم يتبحر فيه فلابد أن ينصف ويرفع من مرتبته في العلوم الأخرى.

وقال ابن عساكر في «تبيين كذب المفتري»: لا يستبعدنَّ جاهل كذب الأهوازي فيما أورده من تلك الحكايات، فقد كان من أكذب الناس فيما يدَّعي من الروايات في القراءات.

وقال عبدالله بن أحمد بن السمرقندي: قال لنا أبو بكر الخطيب: أبو علي الأهوازي كذاب في القراءات والحديث جميعاً.

قال الذهبي: يريد تركيب الإسناد، وادعاء اللقاء، أما وضع حروف أو متون فحاشا وكلا، ما أجوز ذلك عليه، وهو بحر في القراءات، تلقى المقرئون تواليفه ونقله للفن بالقبول، ولم ينتقدوا عليه انتقاد أصحاب الحديث كما أحسنوا الظن بالنقاش، وبالسامري، وطائفة راجوا عليهم.

وكذا ما قاله علي بن عمر ـ وهو الدارقطني ـ أجمع أهل الكوفة

أنّه لم ير من زمن عبدالله بن مسعود إلى زمن أبي العباس بن عقدة أحفظ منه.

قال الذهبي: يمكن أن يقال: لم يوجد أحفظ منه وإلى يومنا وإلى قيام الساعة بالكوفة، فأما أن يكون أحد نظيراً له في الحفظ، فنعم فقد كان بها بعد ابن مسعود وعلي، علقمة، ومسروق، وعبيدة، ثم أئمة حفاظ كإبراهيم النخعي، ومنصور، والأعمش، ومسعر، والثوري، وشريك، ووكيع، وأبي نعيم، وأبي بكر بن أبي شيبة، ومحمد بن عبدالله بن نمير، وأبي كريب، ثم هؤلاء يمتازون عليه بالإتقان والعدالة التامة، ولكنه أوسع دائرةً في الحديث منهم.

فاحرص يا عبدالله أن تكون ألفاظك دقيقة واضحة جلية، وافهم ما الغاية من الكلام، فالعاقل يضع الكلام في موضعه المناسب ولا يحمله فوق محمله، ولا يلزم المتكلم بما لا يلزم، ويرع أذنه للانتباه للمقصود من القول.

* الانحراف عن بعض الحفاظ لهفوة ليس من الإنصاف:

ويوضح هذا الذهبي في ترجمة إسماعيل بن علية، الإمام، العلامة، الحافظ الثبت الكوفي الأصل المولود سنة ١١٠.

قال حماد بن سلمة: ما كنا نشبه شمائل إسماعيل بن علية إلا

بشمائل يونس حتى دخل فيما دخل فيه.

قال الذهبي: يريد ولايته الصدقة، وكان موصوفاً بالدين والورع والتأله، منظوراً إليه في الفضل والعلم، وبدت منه هفوات خفيفة، لم تغير رتبته إن شاء الله.

قال سهل بن شاذويه، سمعت علي بن خشرم يقول: قلت لوكيع: رأيت إسماعيل ابن علية يشرب النبيذ حتى يحمل على الحمار، يحتاج من يرده إلى منزله! فقال وكيع: إذا رأيت البصري يشرب، فاتهمه.

قلت: وكيف؟ قال: إن الكوفي يشربه تدينا، والبصري يتركه تدينا.

هذا دفاع وكيع أما دفاع الذهبي فقد قال: وهذه حكاية غريبة، ما علمنا أحداً غمز إسماعيل بشرب المسكر قط، وقد انحرف بعض الحفاظ عنه بلا حجة، حتى أن منصور بن سلمة الخزاعي تحدث مرة، فسبقه لسانه، فقال: حدثنا إسماعيل بن علية، ثم قال: لا، ولا كرامة، بل أردت زهيراً. وقال: ليس من قارف الذنب كمن لم يقارفه، أنا والله استَتَبْتُه.

قال الذهبي: يشير إلى تلك الهفوة الصغيرة، وهذا من الجرح المردود، وقد اتفق علماء الأمة على الاحتجاج بإسماعيل بن إبراهيم العدل المأمون.

* المبالغة في معاقبة من له محاسن ليس من الإنصاف:

كما حدث لشيخ المقرئين، أبي الحسن، محمد بن أحمد بن أيوب بن شنبوذ، المقرىء، أكثر الترحال في الطلب. مات سنة ٣٢٨، وهو في عشر الثمانين أو جاوزه.

وكان إماماً صدوقاً أميناً متصوناً، كبير القدر.

اعتمده أبو عمرو الداني، والكبار، وثوقاً بنقله وإتقانه لكنه كان له رأي في القراءة بالشواذ التي تخالف رسم الإمام، فنقموا عليه لذلك. وبالغوا وعزروه. والمسألة مختلف فيها في الجملة. وما عارضوه أصلاً فيما أقرأ به ليعقوب[١]، ولأبي جعفر[٢]، بل فيما خرج عن المصحف العثماني. وقد ذكرت ذلك مطولاً في طبقات القراء.

قال أبو شامة: كان الرفق بابن شنبوذ أولى، وكان اعتقاله وإغلاظ القول له كافياً. وليس كان بمصيب فيما ذهب إليه، لكن أخطاؤه في واقعة لا تسقط حقه من حرمة أهل القرآن والعلم.

---

(١) يعقوب بن إسحاق، أحد القراء العشرة، توفي سنة ٢٠٥هـ.

(٢) أبو جعفر المخزومي، يزيد بن القعقاع، أحد القراء العشرة تابعي مشهور كبير القدر توفي سنة ١٣٠.

* المبالغة في المعلومات والأرقام:

كان الإمام الخياط إمام مسجد ابن جردة بالحريم، [دار الخلافة ببغداد]، لقن العميان دهراً لله، وكان يسأل لهم، وينفق عليهم، بحيث إن ابن النجار نقل في «تاريخه» أن أبا منصور الخياط بلغ عدد من أقرأهم من العميان سبعين ألفاً.

قال الذهبي: هذا مستحيل، والظاهر أنه أراد أن يكتب نفساً، فسبقه القلم فخط ألفاً، ومن لقن القرآن لسبعين ضريراً، فقد عمل خيراً كثيراً.

وممن بالغوا في وصف مجالسه الإمام ابن الجوزي:

وكان ذا حظ عظيم وصيت بعيد في الوعظ، يحضر مجالسه الملوك والوزراء وبعض الخلفاء والأئمة والكبراء، لا يكاد المجلس ينقص عن ألوف كثيرة، حتى قيل في بعض مجالسه: حزر الجمع بمئة ألف. ولا ريب أن هذا ما وقع، ولو وقع، لما قدر أن يسمعهم، ولا المكان يسعهم.

قال سبطه أبو المظفر: سمعت جدي على المنبر يقول: بأصبعي هاتين كتبت ألفي مجلدة، وتاب على يدي مئة ألف، وأسلم على يدي عشرون ألفاً، وكان يختم في الأسبوع، ولا يخرج من بيته إلا إلى الجمعة أو المجلس.

قال الذهبي: فما فعلت صلاة الجماعة؟

وكذلك روي عن الحافظ أبي عبدالرحمن النهاوندي، أنه سمع الفسوي يقول: كتبت عن ألف شيخ وكسر كلهم ثقات.

قال الذهبي: ليس في مشيخته إلا نحو من ثلاث مئة شيخ، فأين الباقي؟ ثم في المذكورين جماعة قد ضعفوا.

* ما يمكن تصوره لا يكون من المبالغات:

عن علي بن الحسين بن الجنيد، سمعت يحيى بن معين يقول: إنا لنطعن على أقوام، لعلهم قد حطوا رحالهم في الجنة، من أكثر من مئتي سنة.

قال الذهبي: لعلها من مئة سنة، فإن ذلك لا يبلغ في أيام يحيى هذا القدر.

قول الذهبي: صحيح لو كان ابن معين لم يتكلم إلا فيمن عاصره، ولكن يحيى بن معين لا يلقي الكلم جزافًا ـ رحمه الله تعالى ـ فقوله صحيح إذ أنه مات سنة ٢٣٣. ولا ريب أن هذه السنين فيها من تكلم فيه ابن معين. رحم الله أموات المسلمين.

* لغة يفهمها المحدث:

قال أحمد بن عقبة، سألت يحيى بن معين: كم كتبت من الحديث؟ قال: كتبت بيدي هذه ست مئة ألف حديث ـ قلت: يعني

بالمكرر.

ومن هذه المبالغات ما روي عن أمير الجيوش الملك الأفضل، أبي القاسم بدر الجمالي الأرمني. قتل سنة ٥١٥، وله ٥٨ سنة، وله صفات حسنة.

قال أبو يعلى بن القلانسي: كان الأفضل حسن الاعتقاد، سنيًّا حميد السيرة، كريم الأخلاق، لم يأت الزمان بمثله.

والمبالغة ما رواه ابن خلكان في «تاريخه»: قال صاحب الدول المنقطعة: خلف الأفضل ستَّ مئة ألف ألف دينار، ومئتين وخمسين إردبًّا من الدراهم، وخمسين ألف ثوب من ديباج، وعشرين ألف ثوب حرير، وثلاثين راحلة كذا وكذا ودواةً مجوهرة باثني عشر ألف دينار، وعشرة مجالس، في المجلس مضروب عشرة مسامير من الذهب، على المسمار منديل مشدود فيه بدلة ثياب وخمس مئة صندوق، فيها كسوة ومتاع، سوى الدواب والمماليك والبقر والغنم، ولبن مواشيه يباع في السنة بثلاثين ألف دينار.

قال الذهبي: هذه الأشياء ممكنة، سوى الدنانير والدراهم، فلا أجوز ذلك، بل أستبعد عشره، ولا ريب أن جمعه لهذه الأموال موجب لضعف جيش مصر، ففي أيامه استولت الفرنج على القدس وعكا، وصور وطرابلس والسواحل فلو أنفق ربع ماله، لجمع جيشاً يملأ الفضاء، ولأباد الفرنج، ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

صدق ما قاله الذهبي ـ لو اجتمع له هذا المال ـ ولكن أتجتمع هذه الأمور مع ما وصف به من حسن صفات.

فالمبالغة الحقيقية هو تفريطه بالمال على سفاسف الأمور..

ولم يستبعد الذهبي أن يجمع امرؤ مثل هذا المال، فلقد رأينا في زماننا أناساً لديهم آلاف الملايين ومازالت لو أنفقوا بعضها على أمتهم لرفعوا عنها الضيم والضعف والدين والمسألة، ولو وضعوا عشر معشارها في سبيل الله والجهاد لساعدوا على نصرة الدين وظهوره على جميع الأديان.

ولكنه عدم إنصاف النفس والناس والأمة والمبالغة في الذل والهوان. وفاقد الإنصاف والعدل لا يعطيه.

وكما قال الذهبي: ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

* من الإنصاف عدم إعطاء بعض الكلمات أكثر من حجمها:

عن الحسين بن فهم. سمعت يحيى بن معين، يقول: كنت بمصر، فرأيت جارية بيعت بألف دينار، ما رأيت أحسن منها، صلى الله عليها. فقلت: يا أبا زكريا، مثلك يقول هذا؟ قال: نعم، صلى الله عليها وعلى كل مليح.

هذه الحكاية محمولة على الدعابة من أبي زكريا. وتروى عنه بإسناد آخر.

وهذا الموقف قد يحدث لبعض طلبة العلم الذي انطبع في ذهنه صورة معينة عن العلماء. فلا يحتمل أن يرى من العالم ما يخالف هذه الصورة، ويظن أن هذه الصورة التي في ذهنه هي الحدود التي لابد أن يكون عليها العالم وغيرها لا يليق به.

وموقف ابن معين موقف يقفه جميع الناس، فهو في سوق بيع الرقيق ومعلوم أن الجواري لا يتحجبن كحجاب الحرائر، ومن أراد الشراء فلابد أن يعاين الجارية..

فرآها الشيخ وقال صلى الله عليها.. كما يقول البعض في عصرنا تبارك الرحمن أو ما شاء الله، وكله دعاء بالبركة والحفظ فلا بأس به إن شاء الله.

فعلى طلبة العلم والدعاة أن ينصفوا العلماء والدعاة وإخوانهم، فلا يفسروا أفعالهم وأقوالهم على مقررات سابقة وتصورات محدودة لديهم، وإن يحسنوا الظن فلا تحمل الأقوال والأفعال على المحمل السيء بل على المحمل والظن الحسن.

وفي المقابل لا داعي للمبالغة في تفخيم بعض كلمات العلماء وخطبهم بأن فيها مقاصد عظيمة وخطيرة لا يفهمها إلا النبهاء وتمر على البلهاء فلا يعوها فالعلماء هم أهل الإنصاف والاعتدال والوضوح والبساطة في القول والعمل.

* من الإنصاف فهم سبب المبالغة في بعض التوجيهات :

قال مسروق: من سره أن يعلم علم الأولين والآخرين، وعلم الدنيا والآخرة، فليقرأ سورة الواقعة.

قال الذهبي: هذا قاله مسروق على المبالغة، لعظم ما في السورة من جمل أمور الدارين. ومعنى قوله: فليقرأ الواقعة أي بتدبر وتفكر وحضور. ولا يكن كمثل الحمار يحمل أسفاراً.

وقال أبو بكر بن داسة: سمعت أبا داود يقول: كتبت عن رسول الله ﷺ خمس مئة ألف حديث، انتخبت منها ما ضمنته هذا الكتاب - يعني كتاب «السنن»-، جمعت فيه أربعة آلاف حديث وثماني مئة حديث، ذكرت الصحيح، وما يشبهه ويقاربه، ويكفي الإنسان لدينه من ذلك أربعة أحاديث، أحدها: قوله ﷺ: «**الأعمال بالنيات**» والثاني: «**من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه**». والثالث: قوله: «**لا يكون المؤمن مؤمنا حتى يرضى لأخيه ما يرضى لنفسه**». والرابع: «**الحلال بين**».. الحديث.

قال الذهبي: قوله: يكفي الإنسان لدينه، ممنوع، بل يحتاج المسلم إلى عدد كثير من السنن الصحيحة مع القرآن.

وقول الذهبي صحيح إلا أن أبا داود السجستاني يلفت الانتباه إلى أهمية هذه الأحاديث الأربعة كي يدرسها المسلم ويتفهمها وتكون

بين عينيه وفي جوانحه في حياته.

* من الإنصاف الاعتدال في الطباع وعدم المبالغة فيها:

الطباع أمر لازم في كل إنسان.. فمنها ما يتحلى به الإنسان ويظهر عليه برضاه أو بدونه، ومنها ما يبالغ الناس في إظهاره على امرىءٍ بإلصاق وصف معين على طبع من طباعه.

وعلى المرء المسلم العاقل أن يحاول تغيير طباعه بما يوافق الشرع والسنة.

قال عمرو بن زرارة النيسابوري: صحبت إسماعيل ابن علية أربع عشرة سنة، فما رأيته تبسم فيها.

قال الذهبي: ما في هذا مدح، ولكنه مؤذن بخشية وحزن.

وقال محمد بن النعمان بن عبدالسلام: لم أرَ أعبد من يحيى بن حماد، وأظنه لم يضحك.

قال الذهبي: الضحك اليسير والتبسم أفضل وعدم ذلك من مشايخ العلم على قسمين:

أحدهما: يكون فاضلاً لمن تركه أدباً وخوفًا من الله، وحزناً على نفسه المسكينة.

والثاني: مذموم لمن فعله حمقاً وكبراً وتصنعاً، كما أن من أكثر

الضحك استخف به، ولا ريب أن الضحك في الشباب أخف منه وأعذر في الشيوخ.

وأما التبسم وطلاقة الوجه فأرفع من ذلك كله، قال النبي ﷺ، «**تبسمك في وجه أخيك صدقة**».

وقال جرير: ما رآني رسول الله ﷺ إلا تبسم.

فهذا هو خلق الإسلام، فأعلى المقامات من كان بكَّاءً بالليل، بسَّاماً بالنهار.

بقي هنا شيء: ينبغي لمن كان ضحوكاً بساماً أن يقصر من ذلك، ويلوم نفسه، حتى لا تمجّه الأنفس، وينبغي لمن كان عبوساً منقبضاً أن يتبسم، ويحسن خلقه، ويمقت نفسه على رداءة خلقه، وكل انحراف عن الاعتدال فمذموم، ولابد للنفس من مجاهدة وتأديب.

* ومن الإنصاف عدم المبالغة في تعميم طبع على إقليم أو فرد :

وهذه ظاهرة عند كثير من الناس فتجدهم يبالغون في وصف قوم بالحدة والغضب أو بالطرافة أو السذاجة والبلاهة، أو السفالة والفحش، أو الجود والكرم، أو البخل. والغريب أنك تجد في هذه الأمة المهدية أن الناس يبالغون في الانتقاص والوصم بالمعايب، فلا تجد إقليماً من أقاليم المسلمين إلا وقد وصمه إقليم آخر بوصمة سيئة

مبالغٍ فيها.. ولا تجد ذكراً لمحاسن هذه الأقاليم إلا ما ندر ورحم ربك.

وما يقع على الأقاليم يقع على الناس إلا أن في الناس غلوًّا في المدح كما فيهم غلو ومبالغة في الذم.

فإن رأى امرءاً كيساً حازماً لا يخاف في الله لومة لائم صريحاً في الحق وصمه بما يخالف هذا الوصف، من شدة وقساوة.

وإن رأى امرءاً ليناً رقيقاً محبوباً للناس، يأخذهم باليسر وصمه بما يخالف هذا الوصف، من نفاق وما شابه.

ويشتهر عليه هذا الوصف وتنسى محاسنه الأخرى، أو يثنى على وصف فيه وتنسى مساوئه فلا يُنصح بتصحيح أخطائه. وتبقى هذه الأوصاف المبالغ فيها مع المرء وهذا من الظلم وعدم الإنصاف.

فما أن يرى المرء هذا الإنسان مبتسماً أو متفوهاً بطرفة إلا ويتذكر ما وصف به من السذاجة والخفة، ولا يثبت عنده إلا ذلك ولا يتذكر محاسنه الأخرى.

والمشكلة من أين للمرء أن يتحقق من وصف امرئٍ، وكيف يحق له وصف إنسان بالجود والكرم والبلاهة مثلاً إذا كان ميزان المرء ما يهوى ولم يتعلم الإنصاف وعدم المجازفة؟!

فهذا ابن الأثير الجزري صاحب «جامع الأصول» وغريب الحديث:

قال فيه ابن الشَّعّار: كان من أشد الناس بخلاً.

قال الذهبي من وقف عقاره لله فليس ببخيل، فما هو ببخيل، ولا بجواد، بل صاحب حزم واقتصاد، رحمه الله!!

فاتق الله يا عبدالله وإياك والمبالغة والمجازفة والفظاظة والهوى والبغي وفقنا الله لضبط ألسنتنا ورزقنا الورع في القول والعمل والنيات.

إنصاف من تلبس ببدعة أو خالف السنة

* التحذير من البدع والمبتدعة:

حذر الرسول ﷺ من مخالفة سنته وتبعه على هذا السلف الصالح، وكانت لهم مواقف من المبتدعة كلٌّ حسب بدعته:

قال أبو قلابة: لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تحادثوهم، فإنِّي لا آمن أن يغمروكم في ضلالتهم، أو يلبسوا عليكم ما كنتم تعرفون.

وقال سفيان الثوري: من سمع ببدعة فلا يحكها لجلسائه، لا يلقها في قلوبهم.

قال الذهبي: أكثر أئمة السلف على هذا التحذير، يرون أن القلوب ضعيفة والشبه خطافة.

ولو كانت دقيقة جدًّا. ومن رجل كالمحاسبي الزاهد العارف، شيخ الصوفية، أبي عبدالله الحارث بن أسد البغدادي، صاحب التصانيف الزهدية. المتوفى سنة ٢٤٣هـ.

قال الخطيب: له كتب كثيرة في الزهد وأصول الديانة، والرد على المعتزلة والرافضة.

قال سعيد بن عمرو البرذعي: شهدت أبا زرعة الرازي، وسئل عن المحاسبي وكتبه، فقال: إياك وهذه الكتب، هذه كتب بدع

وضلالات، عليك بالأثر تجد غنية، هل بلغكم أن مالكاً والثوري والأوزاعي صنفوا في الخطرات والوساوس؟ ما أسرع الناس إلى البدع.

وكان هذا الأسلوب؛ منع الاحتكاك بمن له بدعة، أو منع قراءة مصنفاته وتداوله إلى حد هجر صاحبها من الأساليب التي يستعين بها العلماء حتى يكره الناس البدعة، ويستمر اتباعهم للسلف ففيما كان عليه السلف غنية، وكفى بالقرآن واعظاً وبالرسول ﷺ وسنته الصحيحة قدوة، وليسع المتأخرين ما وسع السلف وهم الأعلم والأحكم والأتقى.

وإن كان بعض العلماء يفصل ويبين ما يسوغ أخذه من العالم ومالا يسوغ.

قال الذهبي: المحاسبي كبير القدر، وقد دخل في شيء يسير من الكلام فنقم عليه، وورد أنَّ الإمام أحمد أثنى على حال الحارث من وجه، وحذَّر منه.

وقال أبو الجوزاء أوس بن عبدالله الربعي المصري:

لأن أجالس الخنازير أحب إليّ من أن أجالس أحدًا من أهل الأهواء.

وذكر ابن أبي الدنيا أن الخليفة المهدي كتب إلى الأمصار يزجر أن يتكلم أحد من أهل الأهواء في شيء منها.

وعن يوسف الصائغ قال: رفع أهل البدع رؤوسهم، وأخذوا في الجدل، فأمر بمنع الناس من الكلام، وأن لا يخاض فيه.

قال عبدالصمد مردويه: سمعت الفضيل يقول: من أحب صاحب بدعة، أحبط الله عمله وأخرج نور الإسلام من قلبه، لا يرتفع لصاحب بدعة إلى الله عمل. نظر المؤمن إلى المؤمن يجلو القلب، ونظر الرجل إلى صاحب البدعة يورث العمى، من جلس مع صاحب بدعة لم يعط الحكمة.

* وكانوا شديدي الحذر من فعل عمل بدعي:

سمع عبيدالله بن واصل أحمد بن إسحاق الإمام، الزاهد، العابد المجاهد، فارس الإسلام من أهل سُرْمارى من قرى بخارى (المتوفى سنة ٢٤٢) يقول، وأخرج سيفه: أعلم يقينًا أني قتلت به ألف تركي، وإن عشت قتلت به ألفًا أخرى، ولولا خوفي أن يكون بدعةً لأمرت أن يدفن معي.

قال أبو قلابه: إذا حدثت الرجل بالسنة، فقال: دعنا من هذا، وهات كتاب الله، فاعلم أنه ضال.

قال الذهبي: وإذا رأيت المتكلم المبتدع يقول: دعنا من الكتاب والأحاديث الآحاد. وهات العقل فاعلم أنه أبوجهل، وإذا رأيت السالك التوحيدي يقول: دعنا من النقل ومن العقل، وهات

الذوق والوجد، فاعلم أنه إبليس قد ظهر بصورة بشر، أو قد حلَّ فيه، فإن جبنت منه، فاهرب، وإلا فاصرعه وابرك على صدره واقرأ عليه آية الكرسيّ واخنقه.

* ولمالك بن أنس أقوال ومواقف تحث على اتباع السنة وهجر المبتدعة:

مطرِّف بن عبدالله، سمعت مالكاً يقول: سن رسول الله ﷺ، وولاة الأمر بعده سنناً، الأخذ بها اتباع لكتاب الله، واستكمال بطاعة الله، وقوة على دين الله، ليس لأحد تغييرها، ولا تبديلها، ولا النظر في شيء خالفها، من اهتدى بها، فهو مهتد، ومن استنصر بها، فهو منصور، ومن تركها، اتبع غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى، وأصلاه جهنم وساءت مصيرا.

قال مالك: أكلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ما نزل به جبريل على محمد ﷺ لجدله؟!

ورحم الله الإمام مالكاً ما أصدق عبارته ففي كل زمان يخرج مجادل من أمثال من ذكرهم أبو قلابة والذهبي، حفظ الله شباب ودعاة وعامة المسلمين من شيوخ الجدل والتشويش على السنة والحديث وعلومهما.

قال الشافعي: كان مالك إذا جاءه بعض أهل الأهواء قال: إني

على بينة من ديني، وأما أنت فشاك، اذهب إلى شاك مثلك فخاصمه.

جعفر بن عبدالله قال: كنا عند مالك، فجاءه رجل، فقال: يا أبا عبدالله ﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾ [سورة طه، آية ٥]. كيف استوى؟ فما وجد مالك من شيء ما وجد من مسألته، فنظر إلى الأرض، وجعل ينكت بعود في يده، حتى علاه الرحضاء[١]، ثم رفع رأسه، ورقى بالعود، وقال:

الكيف منه غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وأظنك صاحب بدعة، وأمر به فأخرج.

* الهوى مخرج البدعة:

قال الشيخ الإمام المحدث القدوة أبو عثمان الحيري الصوفي المتوفي سنة ٢٩٨.

من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلاً، نطق بالحكمة، ومن أمر الهوى على نفسه نطق بالبدعة. قال تعالى: ﴿**وإن تطيعوه تهتدوا**﴾ [سورة النور، آية ٥٤].

قال الذهبي: وقال تعالى: ﴿**ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل**

---

(١) الرحضاء: العرق إثر الحمى، أو عرق يغسل الجلد كثرة.

الله﴾ [سورة ص، الآية: ٢٦]..

وأقوال وأفعال السلف في التحذير من الاحتكاك بأهل البدع كثيرة ويهمنا أن لهم موقفًا صارمًا من البدع وأهلها، وأن هجرهم والتحذير من الجلوس معهم هو حماية للدين والناس، وأسلوبٌ للقضاء على البدعة.

والآن نذكر صورًا من إنصاف بعض العلماء الحفاظ العاملين العابدين المعظمين لله، من عرف صلاحهم وورعهم وحرصهم على الاتباع والتحري ولكنهم تلبسوا ببدعة وموقفنا من بدعته.

* قاعدة في إنصاف من تلبس ببدعة وعدم الاقتداء ببدعته:

* إنصاف قتادة ابن دعامة بن قتادة، حافظ العصر، قدوة المفسرين والمحدثين أبو الخطاب السدوسي البصري الضرير الأكمه.

وكان من أوعية العلم، وممن يضرب به المثل في قوة الحفظ.

وهو حجة بالإجماع إذا بين السماع، فإنه مدلس معروف بذلك، وكان يرى القدر، نسأل الله العفو. ومع هذا فما توقف أحد في صدقة، وعدالته، وحفظه، ولعل الله يعذر أمثاله ممن تلبس ببدعة يريد بها تعظيم الباري وتنزيهه، وبذل وسعه، والله حكم عدل لطيف بعباده، ولا يسأل عما يفعل. ثم إن الكبير من أئمة العلم إذا كثر

صوابه، وعلم تحريه للحق، واتسع علمه، وظهر ذكاؤه، وعرف صلاحه وورعه واتباعه، يغفر له زلله، ولا نضلله ونطرحه، وننسى محاسنه. نعم ولا نقتدي به في بدعته وخطئه ونرجو له التوبة من ذلك.

* لا نسمع كل من هب ودب بلا حجة:

ممن أتهم ببدعة الفضيل بن عياض الإمام القدوة الثبت، شيخ الإسلام المتوفى سنة ١٨٦هـ، وهو ممن حذر من أصحاب البدع كما ذكرنا سابقًا.

قال الذهبي: لا عبرة بما نقله أحمد بن أبي خيثمة، سمعت قطبة ابن العلاء يقول: تركت حديث فضيل بن عياض، لأنه روى أحاديث أزرى على عثمان بن عفان.

قال الذهبي: فلا نسمع قول قطبة، ليته اشتغل بحاله، فقد قال البخاري: فيه نظر، وقال النسائي وغيره: ضعيف. وأيضًا فالرجل صاحب سنة واتباع.

قال أحمد بن أبي خيثمة: حدثنا عبدالصمد بن يزيد الصائغ، قال: ذكر عند الفضيل ـ وأنا أسمع ـ الصحابة، فقال: اتبعوا فقد، كفيتم: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، رضي الله عنهم.

قال الذهبي: **إذا كان مثل كبراء السابقين الأولين قد تكلم فيهم الروافض والخوارج، ومثل الفضيل يتكلم فيه، فمن الذي**

يسلم من ألسنة الناس، لكن إذا ثبتت إمامه الرجل وفضله، لم يضره ما قيل فيه، وإنما الكلام في العلماء مفتقر إلى وزن بالعدل والورع.

❊ هذا شيء قد سمج القول فيه:

وممن اتهم في عقيدته شيخ القراءات الإمام العلامة المفتي، شيخ الحنفية، ومسند الشام تاج الدين أبو اليمن زيد الكندي البغدادي، ولد سنة ٥٢٠ ومات سنة ٦١٣.

قال القفطي: كان ليناً في الرواية. معجباً بنفسه فيما يذكره ويرويه، وإذا نوظر جَبَه بالقبيح. ولم يكن موفق القلم، رأيت له أشياء باردة، واشتهر عنه أنه لم يكن صحيح العقيدة.

قال الذهبي: ما علمنا إلا خيراً، وكان يحب الله ورسوله وأهل الخير، وشاهدت له فتيا في القرآن تدل على خير وتقرير جيد، لكنها تخالف طريقة أبي الحسن، الأشعري. **فلعل القفطي قصد أنه حنبلي العقد**، وهذا شيء قد سمج القول فيه فكل من قصد الحق من هذه الأمة فالله يغفر له، أعاذنا الله من الهوى والنفس.

❊ إنصاف من فيه تشيع يسير:

قال حنبل بن إسحاق: سمعت ابن معين يقول: رأيت عند مروان بن معاوية لوحاً فيه أسماء شيوخ: فلان رافضي، وفلان كذا، ووكيع رافضي، فقلت لمروان: وكيع خير منك، قال: مني؟ قلت:

نعم. فسكت، ولو قال لي شيئاً، لوثب أصحاب الحديث عليه.
قال: فبلغ ذلك وكيعاً، فقال: يحيى صاحبنا، وكان بعد ذلك يعرف لي، ويرحب[1].

والظاهر أن وكيعاً فيه تشيع يسير لا يضر إن شاء الله، فإنه كوفي في الجملة، وقد صنف كتاب فضائل الصحابة، سمعناه، قدم فيه باب مناقب علي على مناقب عثمان، رضي الله عنهما.

وممن فيه تشيع يسير محمد بن فضيل ابن غزوان، الإمام الصدوق الحافظ، أبو عبدالرحمن الضبي مولاهم الكوفي، مصنف كتاب «الدعاء» وكتاب «الزهد» وكتاب «الصيام» وغير ذلك. المتوفى سنة ١٩٥. حدَّث عنه عدد كثير، وجم غفير على تشيع كان فيه، إلا أنه كان من علماء الحديث، والكمال عزيز.

وقال أحمد بن حنبل: هو حسن الحديث شيعي.

وقال أبو داود السجستاني: كان شيعيًّا متحرقاً.

قال الذهبي: تحرقه على من حارب أو نازع الأمر عليًّا رضي الله عنه، وهو معظم للشيخين رضي الله عنهما.

وممن شُنِّع عليه: محمد بن جرير بن يزيد، أبو جعفر الطبري،

---

(١) لاحظ قوله «تشيع يسير لا يضر إن شاء الله»، إذ أن هناك تشيع يضر في هذا الزمان وهو الشركيات والغلو في مخالفة عقيدة أهل السنة، وتكفير جل الصحابة، وتكذيب أئمة رواة الحديث، فهل هذا إسلام؟.

الإمام العلمُ المجتهد، عالم العصر، صاحب التصانيف البديعة، من أهل آمل طبرستان استقر في آخر أمره ببغداد. المولد (سنة ٢٢٤ المتوفى سنة ٣١٠).

كان من كبار أئمة الاجتهاد، ثقة صادقاً، حافظاً، رأساً في التفسير، إماماً في الفقه والإجماع والاختلاف، علامة في التاريخ وأيام النَّاس، عارفاً بالقراءات وباللغة، وغير ذلك.

وكان ابن جرير من رجال الكمال، وشُنِّع عليه بيسير تشيع، وما رأينا إلا الخير، وبعضهم ينقل عنه أنه كان يجيز مسح الرجلين في الوضوء ولم نر ذلك في كتبه.

* إذا نشأ عالم في دولة ظالمة ألا نتأول له؟!

عبدالغني بن سعيد بن علي، الإمام الحافظ الحجة النسابة، محدث الديار المصرية أبو محمد الأزدي المصري. المولود في سنة ٣٣٢ والمتوفى سنة ٤٠٩.

كان أبوه سعيد فرضي مصر في زمانه.

كان من كبار الحفاظ.

قال البرقاني: سألت الدارقطني لما قدم من مصر: هل رأيت في طريقك من يفهم شيئاً من العلم؟ قال: ما رأيت في طول طريقي إلا شابًّا بمصر يقال له: عبدالغني، كأنه شعلة نار. وجعل يفخم أمره ويرفع ذكره.

قال أبوالوليد الباجي: عبدالغني بن سعيد حافظ متقن، قلت لأبي ذر الهروي: أخذت عن عبدالغني؟ فقال: لا، إن شاء الله. على معنى التأكيد، وذلك أنه كان لعبدالغني اتصال ببني عبيد، يعني أصحاب مصر.

قلت: اتصاله بالدولة العبيدية كان مداراةً لهم، وإلا فلو جمح عليهم، لاستأصله الحاكم خليفة مصر، الذي قيل: إنه ادعى الإلهية.

وأظنه ولي وظيفة لهم، وقد كان من أئمة الأثر، نشأ في سنة واتباع قبل وجود الرفض، واستمر هو على التمسك بالحديث، ولكنه دارى القوم، وداهنهم فلذلك لم يحبَّ الحافظ أبو ذر الأخذ عنه.

وقد كان لعبد الغني جنازة عظيمة تحدث بها الناس، ونودي أمامها: هذا نافي الكذب عن رسول الله ﷺ.

* الناس على دين الملك:

الشيخ الجليل، المسند العالم، أبو الحسن، علي بن موسى بن الحسين، ابن السمسار الدمشقي. المتوفي سنة ٤٣٣.

كان مسند أهل الشام في زمانه.

قال الكتاني: كان فيه تشيع وتساهل.

وقال أبو الوليد الباجي: فيه تشيع يفضي به إلى الرفض، وهو قليل المعرفة!!.

قال الذهبي: ولعل تشيعه كان تقية لا سجية، فإنه من بيت الحديث، ولكن غلت الشام في زمانه بالرفض، بل ومصر والمغرب بالدولة العبيدية، بل والعراق وبعض العجم بالدولة البويهية، واشتد البلاء دهراً، وشمخت الغلاة بأنفها، وتواخى الرفض والاعتزال حينئذ، والناس على دين الملك، نسأل الله السلامة في الدين.

* هل من الإنصاف أن تبدأ القوم بما لا يعرفون:

درس تعلمناه من الإمام مالك للشيخ الإمام محدِّث الكوفة، أبي محمد إسماعيل بن موسى الفزاري الكوفي سبط إسماعيل السدي.

قال أبو حاتم: صدوق.

وكان من شيعة الكوفة. وقيل: كان غالياً.

قال عبدان الأهوازي: أنكر علينا أبو بكر بن أبي شيبة، أو هناد مُضيَّنا إلى إسماعيل بن موسى، وقال: أيش عملتم عند ذاك الفاسق الذي يشتم السلف وإنما أنكروا غلوه في التشيع.

قال علي بن جعفر: أخبرنا إسماعيل بن بنت السدي، قال: كنت في مجلس مالك، فسئل عن فريضة، فأجاب بقول زيد، فقلت ما قال فيها علي وابن مسعود، رضي الله عنهما، فأومأ إلى الحجبة، فلما هموا بي عدوت وأعجزتهم. فقالوا: ما نصنع بكتبه ومحبرته؟ فقال:

اطلبوه برفق، فجاؤوا إليَّ فجئت معهم. فقال مالك: من أين أنت؟ قلت: من الكوفة، قال: فأين خلفت الأدب؟ فقلت: إنما ذاكرتك لأستفيد فقال: إن عليًّا وعبدالله لا ينكر فضلهما، وأهل بلدنا على قول زيد بن ثابت، وإذا كنت بين قوم، فلا تبدأهم بما لا يعرفون، فيبدأك منهم ما تكره.

توفي إسماعيل الفزاري في خمس وأربعين ومئتين. وكان من أبناء التسعين، سامحه الله.

قال الوزير ابن حِنزابة: سمعت محمد بن موسى المأمومي صاحب النسائي قال: سمعت قوماً ينكرون على أبي عبدالرحمن النسائي كتاب: «الخصائص» لعليٍّ رضي الله عنه، وتركه تصنيف فضائل الشيخين، فذكرت له ذلك، فقال دخلت دمشق والمنحرف بها عن عليّ كثير، فصنفت كتاب «الخصائص» رجوت أن يهديهم الله تعالى. ثم إنه صنف بعد ذلك فضائل الصحابة، فقيل له وأنا أسمع: ألا تخرج فضائل معاوية رضي الله عنه؟ فقال: أي شيء أخرج؟ حديث «**اللهم لا تشبع بطنه**» فسكت السائل.

قلت: لعل أن يقال: هذه منقبة لمعاوية لقوله ﷺ «**اللهم من لعنته أو سببته فاجعل ذلك له زكاةً ورحمة**».

قال الحاكم: كلام النسائي على فقه الحديث كثير، ومن نظر في سننه تحير في حسن كلامه.

قال الـذهبي: ولم يكن أحـد في رأس الثلاث مئة أحفظ من النسـائي، هو أحذق بالحديث وعلله ورجاله من مسلم، ومن أبي داود، ومن أبي عيسى وهو جاء في مضمار البخاري. وأبي زرعة إلا أن فيه قليل تشيع وانحـراف عن خصـوم الإمـام علي، كمعـاوية وعمرو، والله يسامحه.

وقد أدت شدته في الرجال وصراحته إلى أن آذاه أهل دمشق.

عن حمزة العقبي المصري وغيره، أن النسائي خرج من مصر في آخـر عمره إلى دمشق، فسئل بها عن معاوية وما جاء في فضائله، فقال: لا يرضى رأساً برأس حتى يفضّل؟ قال: فمازالوا يدمنون في حضنيه حتى أخرج من المسجد، ثم حمل إلى الرَّملة بفلسطين فتوفي فيها.

فليكن المسلم والداعية حكيماً في دعوته خاصة إذا كان في بلاد ليست ببلاده وبعيداً عن عصبته فليسكت عن بعض السنن الفعلية، ولا يبـدع النـاس في كل صغيرة وكبيرة حتى يقبل ويُحَب ثم رويداً رويداً يغير ما هم عليه من بدع.

* من الإنصاف عذر العالم إذا وقع في فتنة أو محنة:

أبـو نصر التَّمار عبدالملك بن عبدالعزيز بن عبدالملك، المتوفى سنة ٢٢٨. قال فيه أبو حاتم: ثقة، يعد من الأبدال.

قال أبو زرعة الرازي: كان أحمد بن حنبل لا يرى الكتابة عن أبي نصر التمار، ولا ابن معين، ولا ممن امتحن، فأجاب.

وقال أبو الحسن الميموني: صح عندي أنه ـ يعني أحمد ـ لم يحضر أبا نصر التمار حين مات، فحسست أن ذلك لما كان أجاب في المحنة.

قال الذهبي: أجاب تقية وخوفاً من النكال، وهو ثقة بحاله ولله الحمد. ومثله يحيى بن معين الحافظ الجهبذ.

قال سعيد بن عمرو البرذعي: سمعت الحافظ أبا زرعة الرازي، يقول: كان أحمد بن حنبل لا يرى الكتابة عن أبي نصر التمار، ولا عن يحيى بن معين، ولا عن أحد ممن امتحن فأجاب.

قال الذهبي: هذا أمر ضيق، ولا حرج على من أجاب في المحنة، بل ولا على من أكره على صريح الكفر عملاً بالآية. وهذا هو الحق. وكان يحيى رحمه الله من أئمة السنة، فخاف من سطوة الدولة، وأجاب تقية.

وحدث هذا أيضاً لعلي بن المديني الشيخ الإمام الحجة، أمير المؤمنين في الحديث قال ابن عمار الموصلي في «تاريخه»: قال لي علي بن المديني: ما يمنعك أن تكفر الجهمية؟ وكنت أنا أولاً لا أكفرهم.

فلما أجاب علي إلى المحنة، كتبت إليه أذكره ما قال لي، وأذكره الله. فأخبرني رجل عنه أنه بكى حين قرأ كتابي. ثم رأيته

بعد، فقال لي: ما في قلبي مما قلت وأجبت إلى شيء، ولكني خفت أن أقتل، وتعلم ضعفي أني لو ضربت سوطاً واحداً لمتُّ، أو نحو هذا.

قال ابن عمار: ودفع عني عليّ امتحان ابن أبي دُواو إياي، شفع في ودفع في غير واحد من أهل الموصل من أجلي، فما أجاب ديانةً إلا خوفاً.

قال عبدالرحمن بن أبي حاتم: كان أبو زرعة ترك الرواية عن علي من أجل ما بدا منه في المحنة، وكان والدي يروي عنه لنزوعه عما كان منه.

قال أبي: كان عليٌّ علماً في الناس في معرفة الحديث والعلل.

قال الذهبي: ويروى عن عبدالله بن أحمد، أن أباه أمسك عن الرواية عن ابن المديني، ولم أر ذلك، بل في «مسنده» عنه أحاديث، وفي «صحيح البخاري» عنه جملة وافرة.

ولقد شدد الذهبي رحمه الله، النكير على العقيلي لإيراده علي بن المديني في كتابه «الضعفاء» فقال في «ميزان الاعتدال»: وقد بدت منه هفوة ثم تاب منها، وهذا أبو عبدالله البخاري ـ وناهيك به ـ قد شحن صحيحه بحديث علي بن المديني. ولو تركت حديث علي وصاحبه محمد، وشيخه عبدالرزاق، وعثمان بن أبي شيبة.. لغلقنا الباب، وانقطع الخطاب، ولماتت الآثار، واستولت الزنادقة، ولخرج

الدجال. أفما لك عقل يا عقيلي؟! أتدري فيمن تتكلم؟ وإنما تبعناك في ذكر هذا النمط لنذب عنهم، ولنزيف ما قيل فيهم. كأنك لا تدري أن كل واحد من هؤلاء أوثق منك بطبقات. بل وأوثق من ثقات كثيرين لم توردهم في كتابك، فهذا مما لا يرتاب فيه محدث. وأنا أشتهي أن تعرفني من هو الثقة الثبت الذي ما غلط ولا انفرد بما لا يتابع عليه. بل الثقة الحافظ إذا انفرد بأحاديث، كان أرفع له، وأكمل لرتبته، وأدل على اعتنائه بعلم الأثر، وضبطه دون أقرانه لأشياء ما عرفوها، اللهم إلا أن يتبين غلطه ووهمه في الشيء، فيعرف ذلك فانظر أول شيء إلى أصحاب رسول الله ﷺ، الكبار والصغار، ما فيهم أحد إلا وقد انفرد بسنة، فيقال له: هذا الحديث لا يتابع عليه!! وكذلك التابعون وكل واحد عنده ما ليس عند الآخر من العلم، وما الغرض هذا، فإن هذا مقرر على ما ينبغي في علم الحديث.

وبعد ـ فلينصف الداعية والمسلم ـ علماءنا ودعاتنا الذين وقعوا في محنة، ولا يسقطهم بالكلية، ولينظر أكان عاذراً نفسه لو وقع له ما وقع لهم أم لا؟

نسأل الله العفو والعافية والثبات عند المحنة والابتلاء.

* التنطع في من له هفوة ليس من الإنصاف:

* هفوة مسعر بن كدام بن ظُهَيْر الإمام الثبت شيخ العراق الحافظ.

قال أحمد بن حنبل: الثقة كشعبة ومسعر.

قال وكيع: شك مسعر كيقين غيره.

وروى عن الحسن بن عمارة قال: إن لم يدخل الجنة إلا مثل مسعر، إن أهل الجنة لقليل.

عن خالد بن عمرو قال: رأيت مسعراً كأن جبهته ركبة عنز من السجود، وكان إذا نظر إليك حسبت أنه ينظر إلى الحائط من شدة حؤولته.

قال مسعر: من صبر على الخل والبقل، لم يُستعبد.

قال سفيان بن عيينة: قال معن: ما رأيت مسعراً في يوم إلا وهو أفضل من اليوم الذي كان بالأمس. وقال محمد بن سعد: كان لمسعر أم عابدة، فكان يخدمها. وكان مرجئاً، فمات فلم يشهده سفيان الثوري والحسن ابن صالح.

قال شعبة بن الحجاج: كنا نسمي مسعراً: المصحف ـ يعني من إتقانه. وروي عن عبدالله بن داود الخريبي قال: ما من أحد إلا وقد أخذ عليه إلا مسعر.

* هفوة إمامين غلطا في اجتهادهما:

تفريط جرير بن عبدالحميد بن يزيد الإمام الحافظ القاضي، المتوفى سنة ١٨٨. قال زُنَيج: سمعت جريراً يقول: رأيت ابن أبي نجيح. ولم أكتب عنه شيئاً، ورأيت جابراً الجعفي، فلم أكتب عنه

شيئاً، ورأيت ابن جريج، ولم أكتب عنه فقال له رجل: ضيعت يا أبا عبدالله، قال: لا، أمَّا جابر، فكان يؤمن بالرجعة، وأما ابن أبي نجيح، فكان يرى القدر، وأما ابن جريج، فإنه أوصى بنيه بستين امرأة، وقال: لا تزوجوا بهن، فإنهن أمهاتكم ـ كان يرى المتعة. قلت: أما امتناعه من الجعفي، فمعذور، لأنه كان مبتدعاً، ولم يكن بالثقة. وأما الآخران ففرط فيهما، وهما من أئمة العلم، وإن غلطا في اجتهادهما.

وبعض الدعاة يسقط آخرين من كبار الدعاة والعلماء من أقرانه من أجل هفوة. ويتنطع فلا يرضى أن يجتمع ويلتقي بهم للتثبت في الأمر، وحجته هذه الهفوة وأنه ليس أهلاً لأن يؤتى، بل ليس أهلاً لأن يكون داعية أو عالماً.

ولا ندري من ليس لديه هفوة أو اجتهاد أخطأ فيه حتى يجتمع به ويأخذ عنه. وهل سلم هؤلاء الدعاة من الخطأ. وما السبيل للاجتماع إن كان كلما أخطأ إمام أو داعية أو عالم ضيعناه وتنطعنا معه وهجرناه!!

* ومن ندمت المشايخ على التفريط فيه:

علي بن الجعد بن عبيد الإمام الحافظ الحجة مسند بغداد، المولود سنة ١٣٤هـ المتوفى سنة ٢٣٣.

قال الحسين بن إسماعيل الفارسي، سألت عبدوس بن هانىء عن حال علي بن الجعد، فقال: ما أعلم أني لقيت أحفظ منه، فقال: كان يتهم بالجهم.

قال: قد قيل هذا، ولم يكن كما قالوا، إلا أن ابنه الحسن بن علي كان على قضاء بغداد، وكان يقول بقول جهم، قال: كان عند علي بن الجعد عن شعبة نحو من ألف ومئتي حديث، وكان قد لقي المشايخ فزهدت فيه بسبب هذا القول، ثم ندمت بعد.

وقال محمد بن حماد المقرىء: سألت يحيى بن معين عن علي بن الجعد فقال: ثقة صدوق، ثقة صدوق قلت: فهذا الذي كان منه؟ فقال: أيش كان منه؟ ثقة صدوق.

وقال فيه مسلم: هو ثقة لكنه جهمي.

قال الذهبي: ولهذا منع أحمد بن حنبل ولديه من السماع منه. وقد كان طائفة من المحدثين يتنطعون في من له هفوة صغيرة تخالف السنة، وإلا فعليّ إمام كبير حجة، يقال: مكث ستين سنة يصوم يوماً، ويفطر يوماً، وبحسبك أن ابن عدي يقول في «كامله» لم أر في رواياته حديثاً منكراً إذا حدث عنه ثقة.

* نعوذ بالله من الهوى والفظاظة:

قال الذهبي في ترجمة محمد بن نصر بن الحجاج المروزي الإمام، شيخ الإسلام، أبي عبدالله الحافظ المولود في بغداد سنة ٢٠٢.

ذكره الحاكم فقال: إمام عصره بلا مدافعة في الحديث.

قال الحافظ أبو عبدالله بن منده في مسألة الإيمان: صرح محمد بن نصر في كتاب «الإيمان» بأن الإيمان مخلوق، وأنَّ الإقرار، والشهادة وقراءة القرآن بلفظه مخلوق. ثم قال: وهجره على ذلك علماء وقته وخالفه أئمة خراسان والعراق.

قال الذهبي: الخوض في ذلك لا يجوز، وكذلك لا يجوز أن يقال: الإيمان، والإقرار، والقراءة، والتلفظ بالقرآن غير مخلوق، فإن الله خلق العباد وأعمالهم، والإيمان: فقول وعمل، والقراءة والتلفظ: من كسب القارىء، والمقروء الملفوظ: هو كلام الله ووحيه وتنزيله، وهو غير مخلوق وكذلك كلمة الإيمان، وهي قول «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» داخلة في القرآن، **وما كان من القرآن فليس بمخلوق، والتكلم بها من فعلنا وأفعالنا مخلوقة، ولو أنا كلما أخطأ إمام في اجتهاده في آحاد المسائل خطأ مغفوراً له، قمنا عليه، وبدعناه، وهجرناه، لما سلم معنا لا ابن نصر، ولا ابن منده، ولا من هو أكبر منهما**، والله هو هادي الخلق إلى الحق، وهو أرحم الراحمين، فنعوذ بالله من الهوى والفظاظة.

وحدث شيء من هذا من شيخ الإسلام الإمام القدوة، الحافظ الكبير، أبي إسماعيل الهروي قال المؤتمن: كان يدخل على الأمراء والجبابرة فما يبالي، ويرى الغريب من المحدثين، فيبالغ في إكرامه.

وسمعته يقول: تركت الحيريَّ لله. قال: وإنما تركه، لأنه سمع منه شيئاً يخالف السنة.

قال الذهبي: كان يُدري الكلام على رأي الأشعري، وكان شيخ الإسلام أثريًّا قحًّا، ينال من المتكلمة، فلهذا أعرض عن الحيريِّ، والحيريُّ: فثقة عالم، أكثر عنه البيهقي والناس.

* المبالغة والتشدد حتى تجاوز طريقة السلف ليس من الإنصاف:

كان يحيى بن عمار بن يحيى، الإمام المحدث الواعظ، شيخ سجستان، أبو زكريا الشيباني النيهي السجستاني، نزيل هراة. المتوفي سنة ٤٢٢.

متحرقاً على المبتدعة والجهمية بحيث يؤول به ذلك إلى تجاوز طريقة السلف، وقد جعل الله لكل شيء قدراً، إلا أنه كان له جلالة عجيبة بهراة، وأتباع وأنصار.

* من الإنصاف ضبط ألفاظ التكفير وعدم فتح بابه لكل أحد:

لبعض العلماء هفوات وأخطاء واجتهادات قد تبلغ عالماً آخر بصورة مشوهة فيعمد إلى إطلاق ألفاظ الكفر على الآخرين وهذا

ليس من إنصاف العلماء لبعضهم البعض خاصة من عُلم تحريه للسنة واتباع الحق مع صدق وصلاح.

هذا ابن أبي ذئب كان من أشد الناس صرامة وقولاً بالحق.

قال عنه أبو حنيفة بن سماك، حدثني ابن أبي ذئب عن المقبري عن أبي شريح أن رسول الله ﷺ قال: «**من قتل له قتيل فهو بخير النظرين: إن أحب أخذ العقل وإن أحب فله القود**».

قلت لابن أبي ذئب: أتأخذ بهذا؟ فضرب صدري، وصاح كثيراً، ونال مني، وقال: أحدثك عن رسول الله ﷺ وتقول: تأخذ به، نعم آخذ به، وذلك الفرض علي، وعلى كل من سمعه. إن الله اختار محمداً ﷺ من الناس فهداهم به، وعلى يديه، فعلى الخلق أن يتبعوه طائعين أو داخرين، لا مخرج لمسلم من ذلك.

قال أحمد بن حنبل: بلغ ابن أبي ذئب أن مالكاً لم يأخذ بحديث «**البيعان بالخيار**» فقال: يستتاب، فإن تاب، وإلا ضربت عنقه.

قال الذهبي [هذا كلام قبيح] في حق إمام عظيم. فمالك إنما لم يعمل بظاهر الحديث، لأنه رآه منسوخاً.

وقيل: عمل به وحمل قوله: «**حتى يتفرقا**» على التلفظ بالإيجاب والقبول، فمالك في هذا الحديث، وفي كل حديث له أجر ولابد فإن

أصاب، ازداد أجراً آخر، وإنما يرى السيف على من أخطأ في اجتهاده الحرورية[1].

* ألفاظ ومظاهر يشترك فيها أهل الحق مع مخالفيهم:

الإمام العلامة، الحافظ المجود، شيخ خراسان، أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد بن حبان، التميمي الدارمي البستي، صاحب الكتب المشهورة. المولود سنة بضع وسبعين ومئتين المتوفى في سنة أربع وخمسين وثلاث مئة بسجستان بمدينة بست.

عن عبدالصمد بن محمد بن محمد، سمعت أبي يقول: أنكروا على أبي حاتم بن حبان قوله: النبوة: «العلم والعمل» فحكموا عليه بالزندقة، هجر، وكتب فيه إلى الخليفة، فكتب بقتله.

قال الذهبي: هذه حكاية غريبة، وابن حبان فمن كبار الأئمة، ولسنا ندعي فيه العصمة من الخطأ، لكن هذه الكلمة التي أطلقها، قد يطلقها المسلم، ويطلقها الزنديق الفيلسوف، فإطلاق المسلم لها لا ينبغي، لكن يعتذر عنه، فنقول: لم يرد حصر المبتدأ في الخبر ونظير

(١) الحرورية: هم الخوارج، ونسبتهم هذه إلى: حروراء، وهو موضع بظاهر الكوفة وبه كان أول اجتماعهم وتحكيمهم حين خالفوا عليًّا ـ رضي الله عنه ـ وخرجوا عليه.

ذلك قوله عليه الصلاة والسلام «**الحج عرفة**» ومعلوم أن الحاج لا يصير بمجرد الوقوف بعرفة حاجًّا، بل بقي عليه فروض وواجبات، وإنما ذكر مُهِمَّ الحج. وكذا هذا ذكر مُهِمَّ النبوة، إذ من أكمل صفات النبي كمال العلم والعمل. فلا يكون أحد نبيًّا إلا بوجودهما، وليس كل من برز فيهما نبيًّا، لأن النبوة موهبة من الحق تعالى، لا حيلة للعبد في اكتسابها، بل بها يتولد العلم اللدُنِّي والعمل الصالح.

وأما الفيلسوف فيقول: النبوة مكتسبة ينتجها العلم والعمل فهذا كفر، ولا يريده أبو حاتم أصلاً، وحاشاه.

وهذا الأمر قد يقع من بعض دعاة السنة أي التلفظ بألفاظ، أو الاستفادة من أساليب قد تكون عند طائفة أخرى خلطت صالحاً كثيراً بسيىء.. فيتهم الداعية بأنه ينتمي لهذه الفرقة أو الفئة لموافقتها في بعض أمورها، وقد تكون هذه الموافقة في أمر حسن. ولكن الهوى والتعصب والحسد يجعل البعض يترصد هذه الموافقات، ويستخدم ذلك في تنفير الناس من هذا الداعية بغير حق ولا عدل ولا إنصاف.

فاتق الله يا عبدالله وأنصف إخوانك جميعاً ولا تلقي عليهم التهم فتلقى في نار جهنم عقاباً على ما افتريت.

* قول حق ولكنه فج لا تحتمله نفوس كثير من متأخري العلماء:

قال الحاكم: سمعت محمد بن صالح بن هانىء، سمعت ابن

خزيمة يقول: من لم يقر بأن الله على عرشه قد استوى فوق سبع سماواته فهو كافر حلال الدم، وكان ماله فيئاً.

قلت: من أقر بذلك تصديقاً لكتاب الله، ولأحاديث رسول الله ﷺ، وآمن به مفوضاً معناه إلى الله ورسوله، ولم يخض في التأويل ولا عمَّق، فهو المسلم المتبع، ومن أنكر ذلك، فلم يدر بثبوت ذلك في الكتاب والسنة فهو مقصر، والله يعفو عنه، إذ لم يوجب الله على كل مسلم حفظ ما ورد في ذلك ومن أنكر ذلك بعد العلم، وقفا غير سبيل السلف الصالح، وتمعقل على النص، فأمره إلى الله، نعوذ بالله من الضلال والهوى.

وكلام ابن خزيمة هذا ـ وإن كان حقًّا ـ فهو فج، لا تحتمله نفوس كثير من متأخري العلماء.

وهذا التفصيل الذي ذكره الذهبي رحمه الله تعالى ـ لابد من فقهه وتعلمه والاستفادة من تجربته.

فالناس والعلماء منهم خاصة لا تحتمل نفوس كثير منهم الشدة والفظاظة الصريحة في القول، فالله المستعان. فعلى الداعية أن يكون حكيماً كالذهبي رحمه الله. ولعل ابن خزيمة ـ رحمه الله ـ رأى أن من الحكمة أن يصرح بهذا القول للظروف التي كانت في عصره والله أعلم.

ثم إن في هذا التفصيل الذي ذكره الذهبي والدقة في الألفاظ

إسكاتاً لأصحاب الهوى والمتعصبة ممن يتهجمون على علماء السنة حين قول الحق وتبيانه للدعاة.

فالعالم قد يقول عن كلمة لمؤلف هذه كلمة كفر أو فعل هذا فعل كفر ولا يكفره بذلك بل يثني على المؤلف والعالم. ومع هذا يخرج من يخرج ويقول إن العالم قد كفر المؤلف أو العالم الفلاني فيكره العامة وأتباع هذا المتعصب هذا العالم وينسى خطأ المؤلف ويبقى التخاصم والفرقة.

وكرر الذهبي إيضاح هذا التفصيل في ترجمة السراج محمد بن إسحاق بن إبراهيم، الإمام الحافظ الثقة محدث خراسان، وصاحب المسند الكبير على الأبواب والتاريخ وغير ذلك. المولود سنة ٢١١.

أحمد بن محمد الخفاف، حدثنا أبو العباس السراج إملاءً قال: من لم يقر بأن الله تعالى يعجب، ويضحك، وينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا، فيقول: «**من يسألني فأعطيه**» فهو زنديق كافر، يستتاب، فإن تاب وإلا ضربت عنقه، ولا يصلى عليه، ولا يدفن في مقابر المسلمين.

قال الذهبي: لا يكفر إلا إن علم أن الرسول ﷺ قال فإن جحد بعد ذلك فهذا معاند نسأل الله الهدى، وإن اعترف أن هذا حق، ولكن لا أخوض في معانيه، فقد أحسن، وإن آمن وأول ذلك كله، أو تأول بعضه، فهو طريقة معروفة.

وقد كان السراج ذا ثروة وتجارة، وبر ومعروف، وله تعبد وتهجد إلا أنه كان منافراً للفقهاء أصحاب الرأي، والله يغفر له.

* إنصاف مبتدع ذب عن الملة:

ثابت بن أسلم العلامة أبو الحسن الحلبي، فقيه الشيعة، ونحوي حلب.

تصدر للإفادة، وله مصنف في كشف عوار الإسماعيلية وبدء دعوتهم وأنها على المخاريق، فأخذه داعي القوم، وحمل إلى مصر، فصلبه المستنصر، فلا رضي الله عمَّن قتله، وأحرقت لذلك خزانة الكتب بحلب، وكان فيها عشرة آلاف مجلدة، فرحم الله هذا المبتدع الذي ذب عن الملة، والأمر لله.

ومن كُفِّر ببدعة وإن جلَّت، ليس هو مثل الكافر الأصلي، ولا اليهودي والمجوسي، أبي الله أن يجعل من آمن بالله ورسوله واليوم الآخر، وصام وصلى وحج وزكى وإن ارتكب العظائم وضل وابتدع، كمن عاند الرسول، وعبد الوثن، ونبذ الشرائع وكفر، ولكن نبرأ إلى الله من البدع وأهلها.

* لا يصح الاتكاء على الإنصاف في موالاة المبتدعة والمنفرين من السنة وأهلها:

وعلى الدعاة أن يبرءوا من البدع وأهلها.. ممن يكفر الصحابة،

ويجعل مرتبة الأولياء أو الأئمة أعلى من مرتبة الأنبياء، ويكذب ما صح من حديث رسول الله ﷺ. ويخالف طريقة السلف في توحيد الله، وفي الولاء والبراء، وفي إثبات ما أثبته الله ورسوله للرب جل وعلا.

إن هذه الدعوة المعاصرة تمتاز بالحرص على خلوها من شوائب الماضي إذ أنّا نريدها صافية نقية من البدع وأهلها، وما علق من انحرافات عما كان في عهد الصحابة.

فرق بين أن ننصف من هفى هفوة وبين أن نرضى أن يكون على ماهو عليه، ونتابعه على ذلك.

فرق بين أن ننصف من هفى هفوة وبين أن نطالب ألا نبين للأمة والشباب البدعة وأصلها.

فرق بين أن ننصف من هفى هفوة وبين أن نترك للمبتدع العنان يوجه الأمة حسب بدعه وأهوائه.

إنها فروق شاسعة لابد أن يدركها من يتكىء على إنصاف السلف ويطالب أن لا نتبرأ ونبرىء الأمة من البدع وأهلها.

إن خلق الإنصاف عند السلف يدعوك أن تعظم هذا المنهج وتزداد حبًا لهم وتتبعهم في بغض البدعة وأهلها مع إنصافهم فيما أحسنوا.

إن خلق الإنصاف عند السلف يدعوك أن تتحلى بالإنصاف

وتنصف أهل السنة ومن اتبعها وتدعو لنهجهم بدلاً من التنفير منهم والالتفاف حول البدعة وأهلها بحجة الاجتماع والائتلاف.

إن من الإنصاف والحكمة أن يأتلف الدعاة حول منهج أهل السنة والجماعة أولاً بدلاً من أن يسعى البعض إلى الائتلاف مع غلاة الرافضة والباطنية وغلاة أقطاب التصوف. ولا ينصف إخوانه أهل السنة والمعتقد الصحيح بسبب الحزبية أو الاختلاف في بعض أساليب الدعوة.

* من الإنصاف تبرئة النبلاء مما افتري عليهم من ضلالات:

إن هؤلاء المبتدعة الضالين الذين يدعو البعض لإنصافهم. من الإنصاف بيان زيفهم ومكرهم. ومن أساليبهم نسبة بعض الأفعال إلى بعض العلماء والعباد والزهاد. حتى يتخذوها سبيلاً لضلالاتهم.

فهذه رابعة العدوية البصرية الزاهدة العابدة الخاشعة المتوفاة سنة ١٨٠ نسب إليها البعض كلاماً باطلاً، فقام علماء الإنصاف سفيان وشعبة وغيرهما وحكوا ما يدل على بطلان ما قيل عنها: وهو:

ولقد جعلتك في الفؤاد محدثي وأبحت جسمي من أراد جلوسي

فنسبها بعضهم إلى الحلول بنصف البيت، وإلى الإباحة بتمامه.

قال الذهبي: فهذا غلو وجهل، ولعل من نسبها إلى ذلك

مباحي حلولي ليحتج بها على كفره كاحتجاجهم بخبر: «**كنت سمعه الذي يسمع به**».

وكذلك الكذب على أحمد بن أبي الحواري الإمام الحافظ القدوة الزاهد المولود سنة ١٦٤ المتوفي سنة ٢٤٦.

عن يحيى بن معين، وذكر أحمد بن أبي الحواري، فقال: أهل الشام به يمطرون.

وقال ابن أبي حاتم: سمعت أبي يحسن الثناء عليه، ويطنب فيه.

قال أحمد السلمي في (محن الصوفية): أحمد بن أبي الحواري شهد عليه قوم أنه يفضل الأولياء على الأنبياء وبذلوا الخطوط عليه، فهرب من دمشق إلى مكة، وجاور حتى كتب إليه السلطان، يسأله أن يرجع فرجع.

قال الذهبي: إن صحَّت الحكاية فهذا من كذبهم على أحمد، وهو كان أعلم بالله من أن يقول ذلك.

فرحم الله أئمة الإنصاف والحكمة الذين أنصفوا أهل الصلاح من أهل الضلال والزيغ.

إنصاف علماء أخطأوا في غير العقيدة

* لعله لم يبلغه النهي أو تأول:

الأسود بن يزيد بن قيس، الإمام، القدوة، أبو عمرو النخعي الكوفي المتوفي سنة ٧٥. يصوم الدهر.

هذا صحيح عنه وكأنّه لم يبلغه النهي عن ذلك، أو تأول.

* ونتأول لشهر خطأه هذا إن ثبت:

روى يحيى بن أبي بكير الكرماني، عن أبيه، قال: كان شهر بن حوشب على بيت المال، فأخذ خريطة فيها دراهم فقيل فيه:

لقد باع شهرٌ دينه بخريطةٍ
فمن يأمنُ القرَّاء بعدك يا شهرُ
أخذتَ بها شيئاً طفيفاً وبعتَه
من ابن جرير إن هذا هو الغدرُ

قال الذهبي: إسنادها منقطع، ولعلها وقعت، وتاب منها، أو أخذها متأولاً أن له في بيت مال المسلمين حقًّا، نسأل الله الصفح.

* لا قدوة في خطأ العالم:

قال يحيى بن أكثم: صحبت وكيعاً في الحضر والسفر، وكان

يصوم الدهر، ويختم القرآن كل ليلة.

قال الذهبي: هذه عبادة يخضع لها، ولكنها من مثل إمام من الأئمة الأثرية مفضولة، قد صح نهيه عليه السلام عن صوم الدهر، وصح أنه نهى أن يقرأ القرآن في أقل من ثلاث، والدين يسر، ومتابعة السنة أولى، فرضي الله عن وكيع، وأين مثل وكيع؟! ومع هذا فكان ملازماً لشرب نبيذ الكوفة الذي يسكر الإكثار منه فكان متأولاً في شربه، ولو تركه تورعاً، لكان أولى به، فإنَّ من توقى الشبهات، فقد استبرأ لدينه وعرضه، وقد صح النهي والتحريم للنبيذ المذكور. وليس هذا موضع هذه الأمور، وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك، فلا قدوة في خطأ العالم، نعم، ولا يوبخ بما فعله باجتهاد، نسأل الله له المسامحة.

* خطأ الإمام عبدالله بن الإمام أبي داود:

أخطأ ابن أبي داود في تعليقه على حديثٍ فقال الذهبي بعدما بين الخطأ:

أخطأ ابن أبي داود في عبارته وقوله، وله على خطئه أجر واحد، **وليس من شرط الثقة أن لا يخطىء ولا يغلط ولا يسهو**. والرجل فمن كبار علماء الإسلام، ومن أوثق الحفاظ ـ رحمه الله تعالى ـ.

* من زعم أنه لا يكذب أبدا، فهو أرعن !!

علي بن الحسين بن الجنيد، سمعت أبا داود يقول: ابني عبدالله

كذاب. قال ابن صاعد: كفانا ما قال فيه أبوه.

قال الحافظ ابن عدي: كان في الابتداء ينسب إلى شيء من النصب[1]، فنفاه ابن الفرات من بغداد إلى واسط، فرده ابن عيسى، فحدث، وأظهر فضائل علي ثم تحنبل، فصار شيخاً فيهم.

قال الذهبي: كان شهما، قوي النفس، وقع بينه وبين ابن جرير، وبين ابن صاعد.

لعل قول أبيه فيه - إن صح - أراد الكذب في لهجته، لا في الحديث، فإنه حجة فيما ينقله، أو كان يكذب ويوري في كلامه، ومن زعم أنه لا يكذب أبدا، فهو أرعن، نسأل الله السلامة من عثرة الشباب، ثم إنه شاخ وارعوى، ولزم الصدق والتقى.

وتجد بعض الدعاة لا ينصف داعية ولا يرضى أن يحاوره أو يجتمع به بحجة أنه كذب مرةً وقد علم عن هذا المتَّهَم الصلاح والنصيحة للمسلمين والصدق في الدعوة إلى الله، أفلا يُتأول له ويُعتذر عن هذه الكذبة هذا إن كان متعمداً ويعلم أنه يكذب فكيف إذا كان الناقل هو الكذاب!!

ثم هل من الإنصاف أن يطرح هذا الداعية من أجل هذه الكذبة أليس من النصيحة للمسلم أن نسامحه على هذه الهفوة،

(١) النصب: أي بغضة علي رضي الله عنه، من نصب فلان لفلان نصباً، إذا قصد له، وعاداه، وتجرد له.

ونذكره بأن المؤمن لا يكذب، وأن الله لا يرضى هذا الفعل الشين. بدلاً من المقاطعة، وازدياد الفرقة والاختلاف.

فإن كان كل إنسان يطالب الدعاة أن يكونوا ملائكة لا يخطئون فلن يسلم لنا أحد أبداً.

فتقدم أيها الداعية واعف واصفح عن أخيك. وادعه بالحكمة والموعظة الحسنة واكسبه في صفك واكسب دعاءه. ولا تكن متنطعاً متشدداً، وكفانا تدابرًا.

* من فيه آفة وطبع سيئ:

فهذا أحمد بن صالح الإمام الكبير، حافظ زمانه بالديار المصرية، أبو جعفر المصري، المولود بمصر سنة ١٧٠. فيه آفة خلقية، ففصل فيه الذهبي: قال: ومن نادر ما شذ به ابن معين، رحمه الله. كلامه في أحمد بن صالح حافظ مصر، فإنه تكلم فيه باجتهاده، وشاهد منه ما يلينه باعتبار عدالته لا باعتبار إتقانه، فإنه متقن ثبت، ولكن عليه مأخذ في تيهٍ وبَأْوٍ كان يتعاطاه، والله لا يحب كل مختال فخور، ولعله اطلع منه على حال في أيام شبيبة ابن صالح، فتاب منه أو من بعضه، ثم شاخ، ولزم الخير، فلقيه البخاري والكبار، واحتجوا به. وأما كلام النسائي فيه، فكلام موتور لأنه آذى النسائي، وطرده من مجلسه، فقال فيه: ليس بثقة.

قال ابن يونس: لم يكن عندنا بحمد الله كما قال النسائي ولم يكن له آفة غير الكبر.

قال ابن عدي: سمعت عبدالله بن محمد بن سلم المقدسي يقول: قدمت مصر فبدأت بحرملة، فكتبت عنه كتاب عمرو بن الحارث، ويونس ابن يزيد والفوائد، ثم ذهبت إلى أحمد بن صالح فلم يحدثني، فحملت كتاب يونس، فخرقته بين يديه، ـ أرضيه بذلك وليتني لم أخرقه ـ فلم يرض، ولم يحدثني.

قال الذهبي: نعوذ بالله من هذه الأخلاق. صدق أبو سعيد بن يونس حيث يقول: لم يكن له آفة غير الكبر، فلو قُدح في عدالته بذلك، فإنه إثمٌ كبير.

فانظر يا عبدالله كيف أنصف الذهبي الرجل فلم يقدح في عدالته بسبب آفة من الآفات، فاقبل أخاك، واصطبر على خلقه، فالأمر أكبر من تركه إن الأمر يتعلق بجمع كلمة المسلمين، فمتى سيجتمع المسلمون إذا كان أصحاب المعتقد الصحيح متفرقين متنافرين. وفقنا الله جميعاً لما فيه اجتماع الكلمة والتآلف على الخير.

وأنت يا من أخطأت وأسأت الخلق والطبع ـ اتق الله فأنت محاسب عن كل أفعالك وأقوالك ـ فكن شديداً مع نفسك ولا تترك لطباعك العنان في التهجم على إخوانك بحجة النصح لله وحفاظاً على المنهج، وما هو بحفاظ إنما تفريق وتمزيق، وخلط النيات الصالحة

مع هوى النفس والغلبة والشهوات الخفية.

ويكفي خسارة لك في الدنيا أن يشتهر بين الناس عيبك وسوء طبعك، رزقنا الله وإياك إنصاف أنفسنا وإخواننا.

قال تعالى: ﴿الإخلاء يومئذٍ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين﴾.

وبسبب هذه الأخلاق والطباع السيئة شهّر ببعض الأئمة بألقاب لا تليق فاحذر أن توصم بمثلها:

فهذا محمد بن جعفر، الحافظ، المجود، الثبت، أبو عبدالله الهذلي، مولاهم البصري الكرابيسي، أحد المتقنين. المتوفي سنة ١٩٣. لقب بغندر وابن جريج هو الذي سماه غندراً، وذلك لأنه تعنت ابن جريج في الأخذ، وشغب عليه أهل الحجاز، فقال: ما أنت إلا غندر. وأنصفه علماء الأمة.

قال الذهبي: اتفق أرباب الصحاح على الاحتجاج بغندر.

وممن أصيب بهذا الداء الكندي الشيخ الإمام العلامة المفتي شيخ الحنفية، وشيخ العربية، وشيخ القراءات، المتوفي سنة ٦١٣.

قال القفطي: كان معجباً بنفسه فيما يذكره ويرويه.

قال الذهبي: ما علمنا إلا خيراً، وكان يحب الله ورسوله وأهل الخير.

قال الموفق عبداللطيف: اجتمعت بالكندي، وجرى بيننا مباحثات وكان شيخاً بهيًّا ذكيًّا مثرياً، له جانب من السلطان، لكنه

كان معجباً بنفسه مؤذياً لجليسه.

قال الذهبي: أذاه لهذا القائل أنه لقبه بالمطحن.

* لا نطرح العالم لاتباعه قولا مرجوحا:

محمد بن طاهر بن علي الإمام الحافظ، الجوال الرحّال، ذو التصانيف أبو الفضل المقدسي الأثري، الظاهري الصوفي!! ولد ببيت المقدس سنة ٤٠٨.

ذكره الدقاق في رسالته، فحط عليه، فقال: كان صوفيًّا ملامتيًّا، سكن الري، ثم همذان، له كتاب «صفوة التصوف» وله أدنى معرفة بالحديث في باب شيوخ البخاري ومسلم وغيرهما.

قلت: ياذا الرجل، أقصر، فابن طاهر أحفظ منك بكثير.

ثم قال: وذكر لي عنه الإباحة.

قال الذهبي: ما تعني بالإباحة؟ إن أردت بها الإباحة المطلقة، فحاشا ابن طاهر، هو ـ والله ـ مسلم أثري، معظم لحرمات الدين، وإن أخطأ أو شذ، وإن عنيت إباحةً خاصةً، كإباحة السماع، وإباحة النظر إلى المرد فهذه معصية، وقول للظاهرية بإباحتها مرجوح.

وكذا نقول في علمائنا ودعاتنا من أباح سماع الموسيقى أو أطال ثوبه حتى جاوز الكعبين أو حلق اللحية.. هذه معصية، وقول مرجوح لا نتبعه فيه، وذنب ليس بالهين هذا إن لم يخالف أصلاً عظيماً من أصول الدين.

ومع هذا لا نطرح الخير الذي لديهم، وننصفهم ونثني على محاسنهم وندعو لهم بالتوفيق والسداد، وحسن الاتباع، ونستفيد من عطائهم الحسن وندعوهم أيضاً لتصحيح منهجهم في تتبع الرخص وتطويع أحكام الشريعة بما يوافق أهواء العامة فهذا غير جائز ومخالف لأحكام الشريعة وخصائصها.

وأنبه إخواني الدعاة وعامة المسلمين أن الإنصاف هنا لمن أخطأ في بعض المسائل، أما من توسع في كل المسائل الفقهية حتى شكك في منهج التلقي والاستنباط، فهذا من الإنصاف دعوته للحق والعودة لمنهج الاستنباط الصحيح. ومن إنصاف أنفسنا أن لا نتلقى منه هذه الاستنباطات والتلفيقات والرخص التي بناها على غير أصل شرعي مهما بلغت شهرته ورفعت مكانته عند الناس.

* إنصاف ملوك وأمراء الخلافة الإسلامية:

قال الذهبي: معاوية من خيار الملوك الذي غلب عدلهم على ظلمهم، وما هو بريء من الهنات، والله يعفو عنه.

الوليد بن عقبة، الأمير، من مسلمة الفتح. قال حصين بن المنذر: صلى الوليد بالناس الفجر أربعاً وهو سكران ثم التفت، وقال: أزيدكم؟ فبلغ عثمان، فطلبه، وحده.

وهذا مما نقموا على عثمان أن عزل سعد بن أبي وقاص عن الكوفة وولى هذا.

وكان مع فسقه ـ والله يسامحه ـ شجاعاً قائماً بأمر الجهاد.

* إنصاف العالم الإمام فيما يجيد من فنون:

وهذه حال أكثر دعاتنا وعلمائنا ومفكرينا فلننظر كيف ننصفهم:

عاصم بن أبي النجود الإمام الكبير مقرىء العصر، أبو بكر الأسدي مولاهم الكوفي واسم أبيه بهدلة المتوفى في آخر سنة ١٢٧.

قال الذهبي فيه: كان عاصم ثبتاً في القراءة صدوقاً في الحديث، وقد وثقه أبو زرعة وجماعة، وقال أبو حاتم: محله الصدق، وقال الدارقطني: في حفظه شيء يعني: للحديث لا للحروف، وما زال في كل وقت يكون العالم إماماً في فن مقصراً في فنون. وكذلك كان صاحبه حفص بن سليمان ثبتاً في القراءة واهياً في الحديث، وكان الأعمش بخلافه كان ثبتاً في الحديث ليناً في الحروف، فإن للأعمش قراءة منقولة في كتاب «المنهج» وغيره لا ترتقي إلى رتبة القراءات السبع، ولا إلى قراءة يعقوب وأبي جعفر. والله أعلم.

وكرر هذا الإنصاف في موضع آخر في ترجمة الدوري: الإمام العالم الكبير شيخ المقرئين، أبو عمر حفص بن عمر بن عبدالعزيز المتوفى سنة ٢٤٦.

قال الذهبي: وقول الدارقطني: ضعيف؛ يريد في ضبط الآثار. أما في القراءات فثبت إمام. وكذلك جماعة من القراء أثبات

في القراءة دون الحديث كنافع، والكسائي، وحفص، فإنهم نهضوا بأعباء الحروف وحرروها، ولم يصنعوا ذلك في الحديث، كما أنَّ طائفةً من الحفاظ أتقنوا الحديث، ولم يحكموا القراءة. وكذا شأن كل من برز في فن، ولم يعتن بما عداه والله أعلم.

إن هذا التفصيل الذي بينه الذهبي، ينفع أولئك الذين قصروا في إنصاف العلماء والدعاة والمفكرين..

أن نطالب المفكر أن يكون محدثًا أصوليًا وإلا لن نقبل تحليلاته وتوجيهاته واستنباطاته ليس من الإنصاف.

وأن نطالب العالم أن يكون مفكراً، مؤرخًا، سياسيًا وإلا لن نقبل ما لديه من فقه واستنباط ونتهمه ونغض من قدره ليس من الإنصاف.

* ليس من جهل علما حجة على من علمه:

وكما ننصف المختصين في علوم الدنيا فلا يجرؤ أحد على تجاوز اختصاصاتهم والكلام فيما لا يحسن من علوم؛ كالطب والهندسة والمحاسبة والاقتصاد والسياسة.. كذلك يلزم من أجل حسن الاستفادة والتوفيق والسداد التوجه إلى المختصين في الفنون التي تتعلق بالدين وقضايا الأمة، ممن لهم اطلاع وعلم ولديهم كياسة وحنكة في التعامل مع قضايا الأمة، وعلى الآخرين ألَّا يخوضوا فيما لا يحسنون، حتى لا تختلط الأوراق وتعيش الأمة في فوضى وتخبط.

* من جهل شيئا عاداه:

قال الذهبي عن قراءة حمزة خلال ترجمته للحضرميّ:

ولقد عُومل حمزة مع جلالته بالإنكار عليه في قراءته من جماعة من الكبار، ولم يجر مثل ذلك للحضرميّ أبداً، حتى نشأ طائفة متأخرون لم يألفوها، ولا عرفوها، فأنكروها، ومن جهل شيئاً عاداه، قالوا: لم تتّصل بنا متواترة، قلنا: اتصلت بخلق كثير متواترة، وليس من شرط التواتر أن يصل إلى كل الأمة فعند القراء أشياء متواترة دون غيرهم، وعند الفقهاء مسائل متواترة عن أئمتهم لا يدريها القراء، وعند المحدثين أحاديث متواترة قد لا يكون سمعها الفقهاء، أو أفادتهم ظنًّا فقط، وعند النحاة مسائل قطعية، وكذلك اللغويون، وليس من جهل علماً حجة على من علمه، وإنما يقال للجاهل: تعلم، وسل أهل العلم، إن كنت لا تعلم، لا يقال للعالم: اجهل ما تعلم، رزقنا الله وإياكم الإنصاف.

فهلاَّ ينصف الأمة من جهل علماً كما أنصفناه ويتقبل ما لدى المبرز في علم أو فن من الفنون كي تسير سفينة المسلمين آحادهم وجماعتهم إلى بر الأمان؟

عجائب وغرائب في سير الرجال

* التكاثر على ابن طبرزد :

الشيخ المسند الكبير الرحلة أبوحفص عمر بن محمد بن معمر البغدادي المؤدب ويعرف بابن طبرزذ. والطبرزذ بذال معجمة هو السكر. المولود سنة ٥١٦، المتوفى سنة ٦٠٧.

قال أبو شامة: توفي ابن طبرزذ وكان خليعًا ماجناً.

قال ابن النجار: كان يؤدب الصبيان، ويكتب خطًّا حسناً، ولم يكن يفهم شيئاً من العلم، وكان متهاوناً بأمور الدين، رأيته غير مرة يبول من قيام، فإذا فرغ من الإراقة أرسل ثوبه وقعد من غير استنجاء بماء ولا حجر.

قال الذهبي: لعله يرخص بمذهب من لا يُوجب الاستنجاء.

قال: وكنا نسمع منه يوماً أجمع، فنصلي ولا يُصلي معنا، ولا يقوم لصلاة، وكان يطلب الأجر على رواية الحديث، إلى غير ذلك من سوء طريقته، وخلف ما جمعه من الحطام، لم يخرج منه حقًّا لله عز وجل.

قال عمر بن المبارك بن سهلان: لم يكن أبو البقاء بن طبرزذ

ثقة، كان كذاباً يضع للناس أسماءهم في الأجزاء ثم يذهب فيقرأ عليهم، عرف بذلك شيخنا عبدالوهاب ومحمد بن ناصر وغيرهما.

قال الذهبي: الله يسامحه، فمع ما أبديا من ضعفه قد تكاثر عليه الطلبة، وانتشر حديثه في الآفاق وفرح الحفاظ بعواليه، ثم في الزمن الثاني تزاحموا على أصحابه، وحملوا عنهم الكثير وأحسنوا الظن، والله الموعد، ووثقه ابن نُقطة.

* الرواجني فيه غلو في التشيع:

الشيخ العالم الصدوق، محدث الشيعة، أبو سعيد عباد بن يعقوب الأسدي الرواجني الكوفي المبتدع.

وقال الحاكم: كان ابن خزيمة يقول: حدثنا الثقة في روايته المتهم في دينه، عباد بن يعقوب.

وقال ابن عدي: فيه غلو في التشيع.

عن صالح جزرة، قال: كان عباد يشتم عثمان، رضي الله عنه، وسمعته، يقول: الله أعدل من أن يدخل طلحة والزبير الجنة، قاتلا عليًّا بعد أن بايعاه.

وقال ابن جرير: سمعته يقول: من لم يبرأ في صلاته كل يوم من أعداء آل محمد، حشر معهم.

قال الذهبي: هذا الكلام مبدأ الرفض، بل نكف، ونستغفر للأمة، فإن آل محمد في إيَّاهم قد عادى بعضهم بعضاً واقتتلوا على

الملك وتمت عظائم، فمن أيهم نبرأ؟!

قال محمد بن المظفر الحافظ، حدثنا القاسم المطرز، قال: دخلت على عباد بالكوفة، وكان يمتحن الطلبة، فقال: من حفر البحر؟ قلت: الله. قال: هو كذاك، ولكن من حفره؟ قلت: يذكر الشيخ، قال: حفره عليّ، فمن أجراه؟ قلت: الله. قال: هو كذلك؟ ولكن من أجراه؟ قلت: يفيدني الشيخ: قال: أجراه الحسين، وكان ضريراً، فرأيت سيفاً وحَجَفَة[1]. فقلت: لمن هذا؟ قال: أعددته لأقاتل به مع المهدي فلما فرغت من سماع ما أردت، دخلت عليه، فقال: من حفر البحر؟ قلت: حفره معاوية، رضي الله عنه، وأجراه عمرو بن العاص، ثم وثبت **وعدوت فجعل يصيح: أدركوا الفاسق عدو الله، فاقتلوه.**

قال الذهبي: إسنادها صحيح وما أدري كيف تسمحوا في الأخذ عمن هذا حاله؟ وإنما وثقوا بصدقه.

قال البخاري: مات عباد بن يعقوب في سنة خمسين ومئتين.

ورأيت له جزءاً من كتاب «المناقب»، جمع فيها أشياء ساقطة قد أغنى الله أهل البيت عنها، وما أعتقده يتعمد الكذب أبداً.

إنصاف الكتب ومؤلفيها

* كتاب « الغريب » لأبي عبيد :

القاسم بن سلام بن عبدالله الإمام الحافظ المجتهد ذي الفنون. المولود سنة ١٥٧، المتوفى سنة ٢٢٤ بمكة.

انصرف يوماً من الصلاة، فمر بدار إسحاق الموصلي، فقالوا له: يا أبا عبيد، صاحب هذه الدار يقول: إن في كتابك (غريب المصنف) ألف حرف خطأ.

فقال: كتاب فيه أكثر من مئة ألف يقع فيه ألف ليس بكثير؟ ولعل إسحاق عنده رواية، وعندنا رواية، فلم يعلم، فَخَطَّأنا، والروايتان صواب، ولعله أخطأ في حروف، وأخطأنا في حروف، فيبقى الخطأ يسيراً.

وهذا جواب منصف من الإمام أبي عبيد ـ فما من كتاب بشري إلا وبه خطأ. فليوزن الخطأ بالصواب!

وفي زماننا تجد من بعض طلبة العلم ومقلديهم إن وجد خطأً بنفسه أو سمعه من شيخه يملأ الدنيا بأن العالم والمؤلف الفلاني أخطأ في كتابه.

ولقد كنت في الجامعة ـ وللأسف ـ رأيت بعض أساتذتنا، إذا

وجد خطأ لعالم خاصة من الكبار أو ممن ليس على طريقته، أخذ يشهِّر به بين زملائه ـ فلا يدخل علينا أحد من أساتذتنا من أهل الاختصاص نفسه إلا وتجده يذكر ذلك الخطأ ـ وينسى محاسن المؤلف والكتاب والجهد الكبير الذي بذل فيه.

وهكذا من أجل خطأ أو أخطاء وبعضها لا يوجد فيه نص قطعي يؤكد خطأ هذا العالم والنتيجة ماذا؟ إسقاط المؤلف عند بعض الجهال إن استطاعوا أما الكتاب فغالباً ما تفرض مادته العلمية القوية على الساحة حتى يضطر هؤلاء الذين انتقصوا الكتاب ولم يثنوا عليه للنقل منه والاستشهاد به!!

ويا ليت هؤلاء الذين فرغوا أنفسهم لتتبع هفوات العلماء، وقضاء أوقات طويلة في التنقيب عن أخطائهم، ياليتهم شغلوا أنفسهم بإخراج بحوث تهم الناس أو تحقيق مخطوطات نادرة مفقودة أو تصحيح كتب مطبوعة غير محققة، أو التفرغ لتخريج أحاديث كتب كثيرة يرجع إليها العلماء وطلبة العلم والدعاة. بدلاً من تتبع أخطاء وهفوات الآخرين..

خذ مثلاً كتب التفسير كتفسير ابن كثير وتفسير ابن جرير الطبري.. وغيرهما. وكتب السيرة النبوية التي نقتدي بصاحبها ومنهجه في الحياة والدعوة والجهاد، كسيرة ابن هشام وسيرة ابن كثير وغيرهما من مصنفات الحديث كمسند الإمام أحمد، ومجمع الزوائد

للهيثمي وغيرهما . ومصنفات حياة الصحابة والتابعين والأولياء والصوفية، كل هذه الكتب تحتاج إلى دراسة وتصحيح وتخريج. وجزى الله من قام بشيء من ذلك خير الجزاء.

* كتاب « الشفا » للقاضي عياض :

الإمام العلامة الحافظ الأوحد، شيخ الإسلام، القاضي أبوالفضل عياض بن موسى بن عياض اليَحْصبي الأندلسي، ثم السبتي المالكي. المولود في سنة ٤٧٦.

قال الذهبي: تواليفه نفيسة، وأجلها وأشرفها كتاب «الشِّفا» لولا ما قد حشاه بالأحاديث المفتعلة، عمل إمام لا نقد له في فن الحديث ولا ذوق، والله يثيبه على حسن قصده، وينفع بـ«شفائه» وقد فعل، وكذا فيه من التأويلات البعيدة ألوان، ونبينا صلوات الله عليه وسلامه غني بمدحة التنزيل عن الأحاديث، وبما تواتر من الأخبار عن الآحاد، وبالآحاد نظيفة الأسانيد عن الواهيات، فلماذا يا قوم نتشبع بالموضوعات، فيتطرق إلينا مقال ذوي الغلّ والحسد، ولكن من لا يعلم معذور.

* كتاب « التوحيد » لإمام الأئمة ابن خزيمة:

محمد بن إسحاق بن خزيمة، الحافظ الحجة الفقيه، شيخ الإسلام، أبوبكر السلمي، النيسابوري الشافعي، صاحب التصانيف، المولود سنة ٢٢٣.

ولابن خزيمة عظمة في النفوس، وجلالة في القلوب لعلمه ودينه واتباعه السنة.

وكتابه في «التوحيد» مجلد كبير، وقد تأول في ذلك حديث الصورة.

فليعذر من تأول بعض الصفات، وأما السلف، فما خاضوا في التأويل، بل آمنوا وكفوا، وفوضوا علم ذلك إلى الله ورسوله، ولو أن كل من أخطأ في اجتهاده ـ مع صحة إيمانه، وتوخيه لاتباع الحق ـ أهدرناه، وبدعناه، لقل من يسلم من الأئمة معنا، رحم الله الجميع بمنه وكرمه.

ولبعض علمائنا نقض لبعض ألفاظ حديث الصورة من الصنعة الحديثية فوافقوا ابن خزيمة في بعض قوله مع إيمانهم بعدم التأويل والإيمان بما بلغ. فيقال في اجتهادهم ما قيل في اجتهاد ابن خزيمة وأمثالهم.

* تفسير أبي بكر القفال الشاشي:

الإمام العلامة، الفقيه الأصولي اللغوي، عالم خراسان أبوبكر محمد بن علي بن إسماعيل الشاشي الشافعي القفال الكبير، إمام وقته بما وراء النهر، وصاحب التصانيف.

أرخ وفاته الحاكم في سنة خمس وستين وثلاث مئة بالشاش.

قال أبو الحسن الصفار: سمعت أبا سهل الصعلوكي، وسئل عن تفسير أبي بكر القفال، فقال: قدَّسه من وجه، ودنَّسه من وجه أي: دنسه من جهة نَصْره للاعتزال.

قال الذهبي: الكمال عزيز، وإنما يمدح العالم بكثرة ماله من الفضائل، فلا تدفن المحاسن لورطة، ولعله رجع عنها. وقد يغفر له باستفراغه الوسع في طلب الحق، ولا قوة إلا بالله.

هذا هو الإنصاف يمدح المفسر بكثرة ماله من الفضائل وما أخطأ فيه نصرح به وندنسه ولا ندنس صاحبه ولا ندفن محاسنه لأخطاء تورط فيها لسبب من الأسباب.

ولا نسيء للكتاب وصاحبه مادام فيه خير وصواب قد لا يكون عند غيره من أجل بعض الأخطاء لئلا ينفر الناس منه.

وتجد بعض الطوائف تقدس أقوال كتابها وتتعصب لكل ما صدر عنهم، ولا ترضى أن تبين أخطاءهم، بل لا تعترف لهم بأخطاء البتة.

وننصح هؤلاء المتعصبة الذين عُلموا طاعة أتباعهم قبل اتباع الحق ممن كان، ننصحهم بدراسة ما قاله الذهبي في ترجمة السلمي عندما قال له شيخه: من قال لأستاذه: لِمَ؟ لا يفلح أبداً.

قال الذهبي: ينبغي للمريد أن لا يقول لأستاذه: لِمَ، إذا علمه معصوماً لا يجوز عليه خطأ!!

أمـا إذا ظل الشيخ غير معصوم وكره قول: لِمَ؟ فإنه لا يفلح أبداً، قال الله تعالى:

﴿**وتعاونوا على البر والتقوى**﴾ [سورة المائدة، آية: ٢]

وقال تعالى: ﴿**وتواصوا بالحق**﴾ [سورة العصر، آية: ٣].

﴿**وتواصوا بالمرحمة**﴾ [سورة البلد، آية: ١٧].

وبعد فذكر عيوب وأخطاء الكتب مقبول ومما يحتمل مالم يكن القصد من ورائه انتقاص صاحبه. ومازال علماؤنا يرد بعضهم على ما في كتب بعض من خللٍ في التصنيف.

قال الـذهبي بعد الثناء على أبي نعيم الأصبهاني وإنصافه فيما أصاب وأخطأ عن كتابه «الحلية»:

«وسائر المصريين الصلحاء لم يوردهم صاحب «الحلية» ولا عرفهم!!».

* ابـن إسـحـاق[1]

محمد بن إسحاق بن يسار العلامة الحافظ الأخباري أبو بكر وقيل: أبـو عبـدالله القرشي المطلبي مولاهم المدني صاحب السيرة

---

(١) انظر نزهة الفضلاء ص٥٦١.

النبوية وكان جده يسار من سبي عين التمر[١] في دولة خليفة رسول الله ﷺ.

ولد ابن إسحاق سنة ثمانين ورأى أنس بن مالك بالمدينة وسعيد بن المسيب.

قال علي بن المديني: مدار حديث رسول الله ﷺ على ستة فذكرهم ثم قال: فصار علم الستة عند اثني عشر أحدهم محمد بن إسحاق.

عن سفيان قال: رأيت الزهري أتاه محمد بن إسحاق فاستبطأه فقال له: أين كنت؟ قال: وهل يصل إليك أحد مع حاجبك قال: فدعا حاجبه فقال له: لا تحجبه إذا جاء.

هارون بن معروف سمعت أبا معاوية يقول: كان ابن إسحاق من أحفظ الناس. فكان إذا كان عند الرجل خمسة أحاديث أو أكثر فاستودعها عند ابن إسحاق قال: احفظها عليَّ فإن نسيتها كنت قد حفظتها عليَّ.

قال الذهبي: قد كان في المغازي علامة.

---

(١) عين التمر: بلدة قريبة من الأنبار، غربي الكوفة، بقربها موضع يقال له: شفاثا منها يجلب القصب والتمر إلى سائر البلاد، وهي على طرف البرية، وهي قديمة افتتحها المسلمون في أيام أبي بكر على يد خالد بن الوليد في سنة (١٢) للهجرة وكان فتحها عنوة، فسبى نساءها، وقتل رجالها.

* دفاع الأقران عن ابن إسحاق:

ابن المديني: سمعت سفيان وسئل عن ابن إسحاق: لِمَ لم يرو أهل المدينة عنه؟ فقال: جالست ابن إسحاق منذ بضع وسبعين سنة وما يتهمه أحد من أهل المدينة ولا يقول فيه شيئاً. فقلت: له: كان ابن إسحاق يجالس فاطمة بنت المنذر؟ فقال: أخبرني أنها حدثته وأنه دخل عليها.

قال الذهبي: هو صادق في ذلك بلا ريب.

يحيى بن سعيد يقول: سمعت هشام بن عروة يقول: تحدَّث ابن إسحاق عن امرأتي فاطمة بنت المنذر والله إن رآها قط.

قال الذهبي: هشام صادق في يمينه فما رآها ولا زعم الرجل أنه رآها بل ذكر أنها حدثته، وقد سمعنا من عدة نسوة وما رأيتهن، وكذلك روى عدة من التابعين عن عائشة وما رأوا لها صورة أبداً.

* حال الأقران:

وقال مالك، وذكره فقال: دجال من الدجاجلة.

قال الخطيب: ذكر بعضهم: أن مالكاً عابه جماعة من أهل العلم في زمانه بإطلاق لسانه في قوم معروفين بالصلاح والديانة والثقة والأمانة.

قال الذهبي: كلا ما عابهم إلا وهم عنده بخلاف ذلك وهو مثاب على ذلك وإن أخطأ اجتهاده، رحمة الله عليه.

عبدالله بن نافع قال: كان ابن أبي ذئب وابن الماجشون وابن حازم وابن إسحاق يتكلمون في مالك.

وكان أشدهم فيه كلاماً محمد بن إسحاق كان يقول: ائتوني ببعض كتبه حتى أبين عيوبه، أنا بَيْطَارُ كتبه.

*** إنصاف ابن إسحاق:**

وقد أمسك عن الاحتجاج بروايات ابن إسحاق غير واحد من العلماء لأشياء منها: تشيعه، ونسب إلى القدر، ويدلس في حديثه فأما الصدق فليس بمدفوع عنه.

*** قاعدة إنصاف في كلام الرجال بعضهم في بعض:**

وذكر البخاري هنا فصلاً حسناً عن رجاله، وإبراهيم بن سعد، وصالح بن كيسان فقد أكثرا عن ابن إسحاق. قال البخاري: ولو صح عن مالك تناوله من ابن إسحاق فلربما تكلم الإنسان فيرمي صاحبه بشيء واحد ولا يتهمه في الأمور كلها. قال: وقال إبراهيم بن المنذر عن محمد بن فليح: نهاني مالك عن شيخين من قريش وقد أكثر عنهما في (الموطأ) وهما ممَّن يحتج بهما، ولم ينج كثير من الناس من كلام بعض الناس فيهم نحو ما يذكر عن إبراهيم من كلامه في الشعبي وكلام الشعبي في عكرمة وفيمن كان قبلهم. وتناول بعضهم في العرض والنفس ولم يلتفت أهل العلم في هذا النحو إلا ببيان وحجة ولم تسقط عدالتهم إلا ببرهان ثابت وحجة، والكلام في هذا كثير.

* مرتبة ابن إسحاق :

قال الذهبي : لسنا ندعي في أئمة الجرح والتعديل العصمة من الغلط النادر، ولا من الكلام بنفسٍ حادٍّ فيمن بينهم وبينه شحناء وإحنة[1] وقد علم أنَّ كثيراً من كلام الأقران بعضهم في بعض مهدر لا عبرة به، ولا سيما إذا وثق الرجل جماعة يلوح على قولهم الإنصاف، وهذان الرجلان كل منهما قد نال: من صاحبه لكن أثر كلام مالك في محمد بعض اللين، ولم يؤثر كلام محمد فيه ولا ذرة، وارتفع مالك، وصار كالنجم، والآخر فله ارتفاع بحسبه، ولا سيما في السير، وأما في أحاديث الأحكام فينحط حديثه فيها عن رتبة الصحة إلى رتبة الحسن إلا فيما شذ فيه فإنه يعد منكراً. هذا الذي عندي في حاله والله أعلم.

* تلبسه ببدعة :

قال أبو زرعة الدمشقي : ابن إسحاق رجل قد اجتمع الكبراء من أهل العلم على الأخذ عنه، منهم سفيان، وشعبة، وابن عيينة، والحمادان، وابن المبارك، وإبراهيم بن سعد، وروى عنه من القدماء يزيد بن أبي حبيب وقد اختبره أهل الحديث فرأوا صدقاً وخيراً مع مدح ابن شهاب له وقد ذاكرت دحيماً قول مالك فرأى أن ذلك ليس للحديث إنما هو لأنه اتهم بالقدر.

(١) الإحنة: الحقد في الصدر.

* فضل ابن إسحاق ومبزته :

وقال ابن عدي : ولو لم يكن لابن إسحاق من الفضل إلا أنه صرف الملوك عن الاشتغال بكتب لا يحصل منها شيء إلى الاشتغال بمغازي رسول الله ﷺ ومبعثه ومبتدأ الخلق، لكانت هذه فضيلة سبق بها، ثم من بعده صنفها قوم آخرون فلم يبلغوا مبلغ ابن إسحاق منها، وقد فتشت أحاديثه كثيراً فلم أجد من أحاديثه ما يتهيأ أن يُقطع عليه بالضعف وربما أخطأ، أو يهم في الشيء بعد الشيء كما يخطىء غيره ولم يتخلف في الرواية عنه الثقات والأئمة وهو لا بأس به. مات ابن إسحاق سنة خمسين ومئة.

● الإمام الشافعي [1]

محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبديزيد بن هاشم بن المطلب بن عبدمناف.

* حال الناس مع مخالفيهم :

وصنف الكبار في مناقب هذا الإمام قديماً وحديثاً، ونال بعض الناس منه غضًا، فما زاده ذلك إلا رفعةً وجلالة، ولاح للمنصفين أن كلام أقرانه فيه بهوىً، وقل من برز في الإمامة، ورد على من خالفه إلا وعودي، نعوذ بالله من الهوى، وهذه الأوراق تضيق عن مناقب هذا السيد.

---

(١) انظر ترجمة موجزة له في نزهة الفضلاء ص٧٣٣.

* المبالغة في تعظيم الرجال :

قال أبو عُبيد: ما رأيت أحداً أعقل من الشافعي، وكذا قال يونس بن عبدالأعلى، حتى إنه قال: لو جمعت أمة لوسعهم عقله.

قال الذهبي: هذا على سبيل المبالغة، فإنَّ الكامل العقل لو نقص من عقله نحو الربع، لبان عليه نقص ما، ولبقي له نظراء، فلو ذهب نصف ذلك العقل منه، لظهر عليه النقص، فكيف به لو ذهب ثلثا عقله! فلو أنك أخذت عقول ثلاثة أنفس مثلاً، وصيرتها عقلَ واحدٍ؛ لجاء منه كامل العقل وزيادة.

* فسحة صدور العلماء مع اختلافهم في مسائل علمية:

قال يونس الصدفي: ما رأيت أعقل من الشافعي، ناظرته يوماً في مسألة، ثم افترقنا، ولقيني، فأخذ بيدي، ثم قال: يا أبا موسى، ألا يستقيم أن نكون إخواناً وإن لم نتفق في مسألة.

قال الذهبي: هذا يدل على كمال عقل هذا الإمام وفقه نفسه، فمازال النظراء يختلفون.

* ثناء أقرانه عليه:

وقال تميم بن عبدالله: سمعت سويد بن سعيد يقول: كنت عند سفيان، فجاء الشافعي فسلم، وجلس، فروى ابن عيينة حديثًا رقيقاً، فغشي على الشافعي، فقيل: يا أبا محمد، مات محمد بن إدريس، فقال ابن عيينة: إن كان مات، فقد مات أفضل أهل

زمانه.

*** من فسحة الصدر الدعاء لإخوانك:**

قال الحارث بن سريج: سمعت يحيى القطان يقول: أنا أدعو الله للشافعي، أخصه به.

*** من لم يصن نفسه لم ينفعه علمه:**

المزني: سمعت الشافعي يقول: من تعلم القرآن عظمت قيمته، ومن تكلم في الفقه نما قدره، ومن كتب الحديث قويت حجته، ومن نظر في اللغة رق طبعه، ومن نظر في الحساب جزل رأيه، ومن لم يصن نفسه، لم ينفعه علمه.

*** المراء يضيق الصدر:**

قال الربيع: سمعت الشافعي يقول: المراء في الدين يقسي القلب، ويورث الضغائن.

*** فسحة الصدر، أفراح الروح:**

الربيع: سمعت الشافعي يقول: وددت أن الناس تعلموا هذا العلم ـ يعني كتبه ـ على أن لا ينسب إليَّ منه شيء.

*** اضبط أقوالك وأفعالك:**

وسمعته يقول: تجاوز الله عما في القلوب، وكتب على الناس الأفعال والأقاويل.

* المنصف يحبه المنصفون:

وعن الشافعي قال: ما كابرني أحد على الحق ودافع، إلا سقط من عيني، ولا قبله إلا هبته، واعتقدت مودته.

* على الإنصاف:

عبدالله بن أحمد بن حنبل: سمعت أبي يقول: قال الشافعي: أنتم أعلم بالأخبار الصحاح منا، فإذا كان خبر صحيح، فأعلمني حتى أذهب إليه، كوفيًا كان، أو بصريًا أو شاميًا.

قال الشافعي: كل ما قلته فكان من رسول الله ﷺ خلاف قولي مما صح، فهو أولى، ولا تقلدوني.

* دعوة للائتلاف:

وعن الشافعي: بئس الزاد إلى المعاد العدوان على العباد.

وعنه: ضياع العالم أن يكون بلا إخوان، وضياع الجاهل، قلة عقله، وأضيع منهما من واخى من لا عقل له.

* آلات الرئاسة:

آلات الرياسة خمس: صدق اللهجة، وكتمان، السر، والوفاء بالعهد، وابتداء النصيحة، وأداء الأمانة.

وقد صنف الحافظ أبو بكر الخطيب كتاباً في ثبوت الاحتجاج بالإمام الشافعي.

* الحسد عدو الإنصاف :

وما تكلم فيه إلا حاسد أو جاهل بحاله، فكان ذلك الكلام الباطل منهم موجباً لارتفاع شأنه، وعلو قدره، وتلك سنة الله في عباده: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً**﴾ (سورة الأحزاب. الآيتان: ٦٩ـ٧٠).

* دفاع عن الشافعي :

علي بن أحمد بن النضر الأزدي، سمعت أحمد بن حنبل، وسئل عن الشافعي، فقال: لقد من الله علينا به، لقد كنا تعلمنا كلام القوم، وكتبنا كتبهم، حتى قدم علينا، فلما سمعنا كلامه، علمناه أنه أعلم من غيره، وقد جالسناه الأيام والليالي، فما رأينا منه إلا كل خير، فقيل له: يا أبا عبدالله، كان يحيى وأبو عبيد لا يرضيانه ـ يشير إلى التشيع وأنهما نسباه إلى ذلك ـ فقال: أحمد بن حنبل: ما ندري ما يقولان، والله ما رأينا منه إلا خيراً.

قال الذهبي: من زعم أن الشافعي يتشيع فهو مفترٍ، لا يدري ما يقول.

الربيع بن سليمان قال: حججنا مع الشافعي، فما ارتقى شرفاً ولا هبط وادياً، إلا وهو يبكي، وينشد:

يا راكبـــا قف بالمحصَّب من منى
واهـتـف بقـاعـد خيـفنـا والنـاهضِ
سَحَـراً إذا فاض الحجيـجُ إلى منى
فيـضـاً كملتَـطِم الـفـراتِ الفـائضِ
إن كان رفـضـاً حبُّ آل محمـد
فليـهـشـد الـثـقـلان أني رافضي

قال الذهبي: لو كان شيعيًّا ـ وحاشاه من ذلك ـ لما قال: الخلفاء الراشدون خمسة، بدأ بالصديق، وختم بعمر بن عبدالعزيز[1].

* **سبب العداوة:**

روى أبو الشيخ الحافظ وغيره من غير وجه: أن الشافعي لما دخل مصر أتاه جلة أصحاب مالك، وأقبلوا عليه، فلما رأوه يخالف مالكاً، وينقض عليه، جفوه، وتنكروا له، فأنشأ يقول:

أأنثـر درًّا بين سارحـة الـنّعَـم
وأنـظِمُ منـثـوراً لراعـيـة الـغـنـم
لعـمـري لئن ضُيعتُ في شر بلدةٍ
فلسـتُ مضيِّعـاً بيـنهـم غررَ الحِكَـم

(١) وللخبر تتمة في غاية النفاسة عند البيهقي، وهي: ثم قال أحمد لمن حوله: اعلموا رحمكم الله تعالى أن الرجل من أهل العلم إذا منحه الله شيئاً من العلم، وحُرمه قرناؤه وأشكاله، حسدوه فرموه بما ليس فيه، وبئست الخصلة في أهل العلم.

فإن فرج الله اللطيفُ بلطفه
وصادفتُ أهلاً للعلومِ وللحكم
بثثتُ مفيداً واستفدت ودادَهم
وإلا فمخزونٌ لدي ومكتَتَم
ومن منحَ الجهالَ علماً أضاعه
ومن منع المستوجبين فقد ظلم
وكاتم علم الدينِ عمَّن يريده
يبوء بإثم زاد واثم إذا كتم

* **رفع العلماء مراتب بعضهم :**

قال ابن ماجه القزويني: جاء يحيى بن معين إلى أحمد بن حنبل، فبينا هو عنده، إذ مر الشافعي على بغلته، فوثب أحمد يسلم عليه، وتبعه، فأبطأ، ويحيى جالس، فلما جاء، قال يحيى: يا أبا عبدالله، كم هذا؟ فقال: دع عنك هذا؟ إن أردت الفقه، فالزم ذنب البغلة!!

* **حال الناس مع مخالفيهم :**

الربيع: سمعتُ الشافعي يقول: لم أر أحدًا أشهد بالزور من الرافضة.

وقال يونس بن عبدالأعلى: سمعت الشافعي يقول: يا يونس: الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة، والانبساط إليهم مجلبة لقرناء

السوء، فكن بين المنقبض والمنبسط.

وقال لي: رضى الناس غاية لا تدرك، وليس إلى السلامة منهم سبيل، فعليك بما ينفعك فالزمه.

* كلام الأقران بعضهم في بعض:

عن الشافعي: ما أفلح سمينٌ قطُّ إلا أن يكون محمدَ بن الحسن، قيل: ولِمَ؟ قال: لأن العاقل لا يعدو من إحدى خَلتين، إما يغتم لآخرته أو لدنياه، والشحم مع الغم لا ينعقد.

قلت ـ الذهبي ـ: كلام الأقران إذا تبرهن لنا أنه بهوىً وعصبية، لا يلتفت إليه، بل يطوى ولا يروى، كما تقرر الكف عن الكثير مما شجر بين الصحابة وقتالهم رضي الله عنهم أجمعين، وما زال يمر بنا ذلك في الدواوين والكتب والأجزاء، ولكن أكثر ذلك منقطع وضعيف، وبعضه كذب، وهذا فيما بأيدينا وبين علمائنا فينبغي طيه وإخفاؤه، بل إعدامه لتصفو القلوب وتتوفر على حب الصحابة، والترضي عنهم، وكتمان ذلك متعينٌ عن العامة وآحاد العلماء.

* الدعاء والاستغفار للقرناء:

وقد يرخص في مطالعة ذلك خلوةً للعالم المنصف العري عن الهوى، بشرط أن يستغفر لهم، كما علمنا الله تعالى حيث يقول: **﴿والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلًّا للذين آمنوا﴾** [سورة الحشر، الآية: ١٠].

* قواعد في الإنصـــاف :

فالقـوم لهم سوابق، وأعمال مكفرة لما وقع منهم وجهاد محاء، وعبـادة ممحصـة، ولسنـا ممن يغلو في أحد منهم، ولا ندعي فيهم العصمة، نقطع بأن بعضهم أفضل من بعض، ونقطع بأن أبا بكر وعمر أفضل الأمة، ثم تتمة العشرة المشهود لهم بالجنة، وحمزة وجعفر ومعـاذ وزيد، وأمهـات المؤمنين، وبنات نبينا ﷺ، وأهل بدر مع كونهم على مراتب، ثم الأفضـل بعـدهم مثل أبي الدرداء وسلمان الفارسي، وابن عمر وسائر أهل بيعة الرضوان الذين رضي الله عنهم بنص آية سورة الفتـح [١٨]، ثم عمـوم المهـاجـرين والأنصـار كخالد بن الوليد والعبَّاس وعبدالله بن عمرو، وهذه الحلبة، ثم سائر من صحب رسول الله ﷺ وجاهد معه، أو حج معه، أو سمع منه، رضي الله عنهم أجمعين وعن جميع صواحب رسول الله ﷺ المهاجرات والمدنيات وأم الفضل وأم هانىء الهاشمية وسائر الصحابيات.

* الرافضة أكذب الناس .. ومتى إفاقة السكران:

فأما ما تنقله الرافضة وأهل البدع في كتبهم من ذلك، فلا نعرج عليه، ولا كرامة، فأكثره باطل وكذب وافتراء، فدأب الروافض رواية الأباطيل، أو رد ما في الصحاح والمسانيد، ومتى إفاقة من به سَكَران؟!

*** لحوم العلماء مسمومة.. فلا داعي لبث الخلاف فيما بينهم:**

ثم قد تكلم خلق من التابعين بعضهم في بعض، وتحاربوا، وجرت أمور لا يمكن شرحها، فلا فائدة في بثها ووقع في كتب التواريخ وكتب الجرح والعديل أمور عجيبة والعاقل خصمُ نفسه، **ومن حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه**، ولحوم العلماء مسمومة وما نقل من ذلك لتبيين غلط العالم، وكثرة وهمه، أو نقص حفظه، فليس من هذا النمط، بل لتوضيح الحديث الصحيح من الحسن، والحسن من الضعيف.

*** الثناء على العلماء من الإنصاف :**

وإمامنا، فبحمد الله ثبت في الحديث، حافظ لما وعى، عديم الغلط، موصوف الإتقان. متين الديانة، فمن نال منه بجهل وهوى ممن علم أنه منافس له، فقد ظلم نفسه، ومقته العلماء، ولاح لكل حافظ تحامله، وجر الناسُ برجله، ومن أثنى عليه، واعترف بإمامته وإتقانه، وهم أهل العقد والحل قديماً وحديثاً، فقد أصابوا، وأجملوا، وهدوا، ووفقوا.

*** التعصب والهوى والبغي ليس من الإنصاف :**

وقد كنت وقفت على بعض كلام المغاربة فيَّ الإمام رحمه الله، فكانت فائدتي من ذلك تضعيف حال من تعرض إلى الإمام، ولله الحمد.

* حال السابق مع اللاحق :

ولا ريب أن الإمام لما سكن مصر، وخالف أقرانه من المالكية، ووهَّي بعض فروعهم بدلائل السنة وخالف شيخه في مسائل، تألموا منه، ونالوا منه، وجرت بينهم وحشة، غفر الله للكل، وقد اعترف الإمام سحنون، وقال: لم يكن في الشافعي بدعة، فصدق والله، فرحم الله الشافعي، وأين مثل الشافعي والله! في صدقه، وشرفه، ونبله، وسعة علمه، وفرط ذكائه، ونصره للحق، وكثرة مناقبه، رحمه الله تعالى.

* هكذا تكسب الدعاة ومن حولك :

وعنه قال: التواضع من أخلاق الكرام، والتكبر من شيم اللئام، والتواضع يورث المحبة، والقناعة تورث الراحة، وقال: أرفع الناس قدراً من لا يرى قدره، وأكثرهم فضلاً من لا يرى فضله.

* روعة الإنصاف :

لا نلام ونالله على حب هذا الإمام، لأنه من رجال الكمال في زمانه رحمه الله، وإن كنا نحب غيره أكثر.

* داود بن علي [1] والظاهرية :

ابن خلف، الإمام، البحر، الحافظ، عالم الوقت، أبو سليمان

---

(١) انظر سيرة موجزة له في (نزهة الفضلاء) ص٩٤٥.

البغدادي، المعروف بالأصبهاني، مولى أمير المؤمنين المهدي، رئيس أهل الظاهر.

مولده سنة مئتين ومات في شهر رمضان سنة ٢٧٠.

*** ثناء العلماء عليه :**

قال أبو بكر الخطيب: صنف الكتب، وكان إماماً ورعاً ناسكاً زاهداً، وفي كتبه حديث كثير، لكن الرواية عنه عزيزة جدًّا.

*** إنصاف داود الظاهري :**

قال الذهبي: للعلماء قولان في الاعتداد بخلاف داود وأتباعه: فمن اعتد بخلافهم، قال: ما اعتدادنا بخلافهم لأن مفرداتهم حجة، بل لتحكى في الجملة، وبعضها سائغ، وبعضها قوي وبعضها ساقط، ثم ما تفردوا به هو شيء من قبيل مخالفة الإجماع الظني، وتندر مخالفتهم لإجماع قطعي. ومن أهدرهم، ولم يعتد بهم، لم يعدهم في مسائلهم المفردة خارجين بها من الدين، ولا كفرهم بها، بل يقول: هؤلاء في حيز العوام، أو هم كالشيعة في الفروع، ولا نلتفت إلى أقوالهم، ولا ننصب معهم الخلاف، ولا يُعتنى بتحصيل كتبهم، ولا ندلّ مستفتيا من العامة عليهم. وإذا تظاهروا بمسألة معلومة البطلان، كمسح الرجلين، أدبناهم، وعزرناهم، وألزمناهم بالغسل جزما.

قال الأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني: قال الجمهور: إنهم -

يعني نفاة القياس ـ لا يبلغون رتبة الاجتهاد، ولا يجوز تقليدهم القضاء.

وقال إمام الحرمين أبو المعالي: الذي ذهب إليه أهل التحقيق: أن منكري القياس لا يعدون من علماء الأمة، ولا من حملة الشريعة، لأنهم معاندون، مباهتون فيما ثبت استفاضة وتواتراً، لأن معظم الشريعة صادر عن الاجتهاد، ولا تفي النصوص بعشر معشارها، وهؤلاء ملتحقون بالعوام.

قال الذهبي: هذا القول من أبي المعالي أداه إليه اجتهاده، وهم فأداهم اجتهادهم إلى نفي القول بالقياس، فكيف يرد الاجتهاد بمثله، وندري بالضرورة أن داود كان يقرىء مذهبه، ويناظر عليه، ويفتي به في مثل بغداد، وكثرة الأئمة بها وبغيرها، فلم نرهم قاموا عليه، ولا أنكروا فتاويه ولا تدريسه، ولا سعوا في منعه من بثه، وبالحضرة مثل إسماعيل القاضي، شيخ المالكية، وعثمان بن بشار الأنماطي، شيخ الشافعية، والمروذي شيخ الحنبلية، وابني الإمام أحمد، وأبي العباس أحمد بن محمد البرتي، شيخ الحنفية، وأحمد بن أبي عمران القاضي، ومثل عالم بغداد إبراهيم الحربي. بل سكتوا له، حتى لقد قال قاسم ابن أصبغ: ذاكرت الطبري ـ يعني ابن جرير ـ وابن سريج، فقلت لهما: كتاب ابن قتيبة في الفقه أين هو عندكما؟ قالا: ليس بشيء، ولا كتاب أبي عبيد، فإذا أردت الفقه فكتب

الشافعي، وداود ونظرائهما.

ثم كان بعده ابنه أبو بكر، وابن المغلس، وعدة من تلامذة داود، وعلى أكتافهم مثل: ابن سريج، شيخ الشافعية، وأبي بكر الخلال، شيخ الحنبلية، وأبي الحسن الكرخي شيخ الحنفية، وكان أبو جعفر الطحاوي بمصر. بل كانوا يتجالسون ويتناظرون، ويبرز كل منهم بحججه، ولا يسعون بالداودية إلى السلطان. بل أبلغ من ذلك، ينصبون معهم الخلاف، في تصانيفهم قديماً وحديثاً، وبكل حال، فلهم أشياء أحسنوا فيها، وهم مسائل مستهجنة، يشغب عليهم بها، وإلى ذلك يشير الإمام أبو عمرو بن الصلاح، حيث يقول: الذي اختاره الأستاذ أبو منصور، وذكر أنه الصحيح من المذهب، أنه يعتبر خلاف داود. ثم قال ابن الصلاح: وهذا الذي استقر عليه الأمر آخرًا، كما هو الأغلب الأعرف من صفو الأئمة المتأخرين، الذين أوردوا مذهب داود في مصنفاتهم المشهورة، كالشيخ أبي حامد الإسفراييني، والماوردي، والقاضي أبي الطيب، فلولا اعتدادهم به لما ذكروا مذهبه في مصنفاتهم المشهورة.

قال: وأرى أن يعتبر قوله إلا فيما خالف فيه القياس الجلي، وما أجمع عليه القياسيون من أنواعه، أو بناه على أصوله التي قام الدليل القاطع على بطلانها، فاتفاق من سواه إجماع منعقد، كقوله في التغوط

في الماء الراكد[1] وتلك المسائل الشنيعة، وقوله: لا ربا إلا في الستة المنصوص عليها، فخلافه في هذا أو نحوه غير معتد به، لأنه مبني على ما يقطع ببطلانه.

قلت: لا ريب أن كل مسألة انفرد بها، وقطع ببطلان قوله فيها، فإنها هدر، وإنما نحكيها للتعجب، وكل مسألة له عَضَدها نص، وسبقه إليها صاحب أو تابع، فهي من مسائل الخلاف، فلا تهدر.

*** الكمال عزيز:**

وفي الجملة، فداود بن علي بصير بالفقه، عالم بالقرآن، حافظ للأثر، رأس في معرفة الخلاف، من أوعية العلم، له ذكاء خارق، وفيه دين متين. وكذلك في فقهاء الظاهرية جماعة لهم علم باهر، وذكاء قوي، فالكمال عزيز، والله الموفق.

---

(١) وهو قول ابن حزم، ونص كلامه في (المحلى): ١/١٣٥: (إلا أن البائل في الماء الراكد الذي لا يجري حرام عليه الوضوء بذلك الماء والاغتسال به لغرض أو لغيره، وحكمه التيمم إن لم يجد غيره... فلو أحدث في الماء أو بال خارجاً منه ثم جرى البول فيه فهو طاهر يجوز الوضوء منه والغسل له ولغيره لا أن يغير ذلك البول أو الحدث شيئاً من أوصاف الماء فلا يجزىء حينئذ استعماله أصلاً لا له ولا لغيره.

* لا يجوز تقليد أخطاء العلماء :

ونحن: فنحكي قول ابن عباس في المتعة، وفي الصرف، وفي إنكار العَوْل، وقول طائفة من الصحابة في ترك الغسل من الإيلاج، وأشباه ذلك، ولا نجوز لأحد تقليدهم في ذلك.

* ابن حـــــزم

* إنصاف من تلبس بأخطاء :

الإمام الأوحد، البحر، ذو الفنون والمعارف، أبو محمد، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد الفارسي الأصل، ثم الأندلسي القرطبي اليزيدي مولى الأمير يزيد بن أبي سفيان بن حرب الأموي، ـ رضي الله عنه ـ المعروف بيزيد الخير، نائب أمير المؤمنين أبي حفص عمر على دمشق، الفقيه الحافظ المتكلم، الأديب، الوزير الظاهري، صاحب التصانيف، فكان جده يزيد مولى للأمير يزيد أخي معاوية. وكان جده خلف بن معدان هو أول من دخل الأندلس في صحابة ملك الأندلس عبدالرحمن بن معاوية بن هشام المعروف بالداخل.

ولد أبو محمد بقرطبة في سنة أربع وثمانين وثلاث مئة. نشأ في تنعم ورفاهية، ورزق ذكاء مفرطاً، وذهناً سيالاً، وكتباً نفيسة كثيرة، وكان والده من كبراء أهل قرطبة، عمل الوزارة في الدولة العامرية، وكذلك وزر أبو محمد في شبيبته، وكان قد مهر أولاً في الأدب والأخبار

والشعر، وفي المنطق وأجزاء الفلسفة، فأثرت فيه تأثيراً ليته سلم من ذلك، ولقد وقفت له على تأليف يحض فيه على الاعتناء بالمنطق، ويقدمه على العلوم، فتألمت له، فإنه رأس في علوم الإسلام، متبحر في النقل، عديم النظير على يبس فيه، وفرط ظاهرية في الفروع لا الأصول.

*** كل يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ :**

قيل: إنه تفقه أولاً للشافعي، ثم أداه اجتهاده إلى القول بنفي القياس كله جليه وخفيه، والأخذ بظاهر النص وعموم الكتاب والحديث، والقول بالبراءة الأصلية، واستصحاب الحال، وصنف في ذلك كتباً كثيرة، وناظر عليها، وبسط لسانه وقلمه، ولم يتأدب مع الأئمة في الخطاب، بل فجج[1] العبارة وسب وجَدَّع[2]، فكان جزاؤه من جنس فعله، بحيث إنه أعرض عن تصانيفه جماعة من الأئمة، وهجروها ونفروا منها، وأحرقت في وقت، واعتنى بها آخرون من العلماء وفتشوها انتقاداً واستفادة، وأخذاً ومؤاخذة، ورأوا فيها الدر الثمين ممزوجاً في الرَّصْف بالخرز المهين، فتارة يطربون، ومرة يعجبون، ومن تفرده يهزؤون. وفي الجملة فالكمال عزيز، وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك، إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكان ينهض بعلوم جمة، ويجيد النقل، ويحسن النظم والنثر وفيه

---

(١) المعنى أنه ساق العبارة فجة قاسية.

(٢) الجدع في الأصل: القطع، وهو هنا كناية عن الذم والشتم.

دين وخير ومقاصده جميلة، ومصنفاته مفيدة، وقد زهد في الرئاسة، ولزم منزلة مكبًّا على العلم، فلا نغلو فيه، ولا نجفو عنه، وقد أثنى عليه قبلنا الكبار.

قال أبو حامد الغزالي: وجدت في أسماء الله تعالى كتاباً ألفه أبو محمد بن حزم الأندلسي يدل على عظم حفظه وسيلان ذهنه.

*** ثناء العلماء عليه:**

قال أبو عبدالله الحميدي: كان ابن حزم حافظاً للحديث وفقهه، مستنبطاً للأحكام من الكتاب والسنة، متفنناً في علوم جمة عاملاً بعلمه، ما رأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء، وسرعة الحفظ وكرم النفس والتدين، وكان له في الأدب والشعر نفس واسع وباع طويل وما رأيت من يقول الشعر على البدية أسرع منه، وشعره كثير جمعته على حروف المعجم.

*** ليس من فسحة الصدر الاستخفاف بالآخرين:**

وقد حط أبوبكر بن العربي على أبي محمد في كتاب «القواصم والعواصم» وعلى الظاهرية، فقال: هي أمة سخيفة، تسورت على مرتبة ليست لها، وتكلمت بكلام لم نفهمه، تلقوه من إخوانهم الخوارج حين حَكَّم علي - رضي الله عنه - يوم صفين، فقالت: لا حكم إلا لله، وكان أولَ بدعة لقيت في رحلتي القولُ بالباطن، فلما عدت وجدت القول بالظاهر قد ملأ به المغرب سخيفٌ كان من بادية

إشبيلية يعرف بابن حزم، نشأ وتعلق بمذهب الشافعي، ثم انتسب إلى داود، ثم خلع الكل، واستقل بنفسه، وزعم أنه إمام الأمة يضع ويرفع، ويحكم ويشرع، ينسب إلى دين الله ماليس فيه، ويقول عن العلماء مالم يقولوا تنفيراً للقلوب منهم، وخرج عن طريق المشبهة في ذات الله وصفاته، فجاء فيه بطوامَّ، واتفق كونه بين قوم لا بصر لهم إلا بالمسائل فإذا طالبهم بالدليل كاعوا[1]، فيتضاحك مع أصحابه منهم، وعَضَدَتْهُ الرئاسة بما كان عنده من أدب، ويشبه كان يوردها على الملوك فكانوا يحملونه، ويحمونه، بما كان يلقي إليهم من شبه البدع والشرك، وفي حين عودي من الرحلة ألفيت حضرتي منهم طافحة، ونار ضلالهم لافحة، فقاسيتهم مع غير أقران وفي عدم أنصار إلى حساد يطؤون عقبي، تارة تذهب لهم نفسي، وأخرى ينكشر بهم ضرسي، وأنا ما بين إعراض عنهم أو تشغيب بهم، وقد جاءني رجل بجزء لابن حزم سماه «نكت الإسلام» فيه داوهي، فجردت عليه نواهي، وجاءني آخر برسالة في الاعتقاد فنقضتها برسالة «الغرة»، والأمر أفحش من أن ينقض.

يقولون: لا قول إلا ما قال الله، ولا نتبع إلا رسول الله، فإن الله لم يأمر بالاقتداء بأحد، ولا بالاهتداء بهدي بشر، فيجب أن

(١) أي جبنوا.

يتحققوا أنهم ليس لهم دليل وإنما هي سخافة في تهويل، فأوصيكم بوصيتين: أن لا تستدلوا عليهم، وأن تطالبوهم بالدليل، فإن المبتدع إذا استدللت عليه شغب عليك، وإذا طالبته بالدليل لم يجد إليه سبيلاً فأما قولهم: لا قول إلا ما قال الله، فحق، ولكن أرني ما قال. وأما قولهم: لا حكم إلا لله. فغير مسلم على الإطلاق، بل من حكم الله أن يجعل الحكم لغيره فيما قاله وأخبر به.

صح أن رسول الله ﷺ قال: «**وإذا حاصرت أهل حصن فلا تنزلهم على حكم الله، فإنك لا تدري ما حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك**». وصح أنه قال: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء...**» الحديث.

قلت: لم ينصف القاضي أبو بكر ـ رحمه الله ـ شيخ أبيه في العلم، ولا تكلم فيه بالقسط، وبالغ في الاستخفاف به، وأبو بكر فعلى عظمته في العلم لا يبلغ رتبة أبي محمد، ولا يكاد، فرحمهما الله وغفر لهما.

* إنصاف القاضي أبي بكر:

وذكر الذهبي في ترجمة أبي بكر بن العربي ذمه لأبي محمد بن حزم فقال: ولم أنقم على القاضي رحمه الله إلا إقذاعه في ذم ابن حزم واستجهاله له وابن حزم أوسع دائرة من أبي بكر في العلوم، وأحفظ

بكثير، وقد أصاب في أشياء وأجاد، وزلق في مضايق كغيره من الأئمة، والإنصاف عزيز.

* ضبط مسألة الاجتهاد:

قال اليسع بن حزم الغافقي وذكر أبا محمد فقال: حدثني عنه عمر بن واجب قال: بينما نحن عند أبي ببلنسية وهو يدرس المذهب إذا بأبي محمد بن حزم يسمعنا، ويتعجب، ثم سأل الحاضرين مسألة من الفقه، جُووب فيها، فاعترض في ذلك، فقال له بعض الحضار: هذا العلم ليس من منتحلاتك، فقام وقعد، ودخل منزله فعكف، ووَكَف[1] منه وابل فما كفَّ، وما كان بعد أشهر قريبة حتى قصدنا إلى ذلك الموضع فناظر أحسن مناظرة، وقال فيها: أنا أتبع الحق، وأجتهد ولا أتقيد بمذهب.

قال الذهبي: نعم، من بلغ رتبة الاجتهاد، وشهد له بذلك عدة من الأئمة، لم يسغ له أن يقلد، كما أن الفقيه المبتدىء والعامي الذي يحفظ القرآن أو كثيراً منه لا يسوغ له الاجتهاد أبداً، فكيف يجتهد وما الذي يقول؟ وعلام يبني؟ وكيف يطير ولما يُرَيّش؟ والقسم الثالث: الفقيه المنتهي اليقظ الفهم المحدث، الذي قد حفظ مختصراً في الفروع، وكتاباً في قواعد الأصول، وقرأ النحو، وشارك في

---

(١) وكف: قطر.

الفضائل مع حفظه لكتاب الله وتشاغله بتفسيره وقوة مناظرته، فهذه رتبة من بلغ الاجتهاد المقيد، وتأهل للنظر في دلائل الأئمة، فمتى وضح له الحق في مسألة، وثبت فيها النص، وعمل بها أحد الأئمة الأعلام كأبي حنيفة مثلاً، أو كمالك، أو الثوري، أو الأوزاعي، أو الشافعي وأبي عبيد، وأحمد، وإسحاق، فليتبع فيها الحق ولا يسلك الرخص وليتورع، ولا يسعه فيها بعد قيام الحجة عليه تقليد، فإن خاف ممن يشغب عليه من الفقهاء فليتكتم بها ولا يتراءى بفعلها، فربما أعجبته نفسه، وأحب الظهور، فيعاقب، ويدخل عليه الداخل من نفسه.

*** داء وقع فيه بعض الدعاة والمنتسبين إلى العلم الشرعي:**

فكم من رجل نطق بالحق، وأمر بالمعروف، فيسلط الله عليه من يؤذيه لسوء قصده، وحبه للرئاسة الدينية، فهذا داء خفي سار في نفوس الفقهاء كما أنه داء سار في نفوس المنفقين من الأغنياء وأرباب الوقوف والترب المزخرفة وهو داء خفي يسري في نفوس الجند والأمراء والمجاهدين، فتراهم يلتقون العدوَّ، ويصطدم الجمعان وفي نفوس المجاهدين مخبآت وكمائنُ من الاختيال وإظهار الشجاعة ليقال، والعجب، ولبس القراقل[1] المذهبة والخوذ المزخرفة، والعدد المحلاة

(١) القرقل: ضرب من الثياب، وقيل: هو ثوب بغير كمين، وقال أبو تراب: =

على نفوس متكبرة، وفرسان متجبرة وينضاف إلى ذلك إخلال بالصلاة، وظلم للرعية، وشرب للمسكر، فأنى ينصرون؟ وكيف لا يخذلون؟ اللهم: فانصر دينك، ووفق عبادك. فمن طلب العلم للعمل كسره العلم، وبكى على نفسه، ومن طلب العلم للمدارس والإفتاء والفخر والرياء، تحامق، واختال، وازدرى بالناس وأهلكه العجب، ومقتته الأنفس ﴿**قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها**﴾ [سورة الشمس: الآيتان: ٩، ١٠] أي: دسَّسها بالفجور والمعصية. قلبت فيه السين ألفاً.

* إنصاف الكتب:

قال الشيخ عزالدين بن عبدالسلام ـ وكان أحد المجتهدين: ـ ما رأيت في كتب الإسلام في العلم مثل «المحلى» لابن حزم، وكتاب «المغني» للشيخ موفق الدين.

قال الذهبي: لقد صدق الشيخ عزالدين وثالثهما: «السنن الكبير» للبيهقي. ورابعهما: «التمهيد» لابن عبدالبر. فمن حصل هذه الدواوين، وكان من أذكياء المفتين، وأدمن المطالعة فيها، فهو العالم حقًّا.

= القرقل قميص من قمص النساء، وجمعه قراقل.

* من الإنصاف الاعتدال في الطباع :

أبوالعباس ابن العريف: كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقين.

قال أبو مروان بن حيان: كان ابن حزم ـ رحمه الله ـ حامل فنون من حديث وجدل ونسب، وما يتعلق بأذيال الأدب، مع المشاركة في أنواع التعاليم القديمة من المنطق والفلسفة، وله كتب كثيرة لم يخل فيها من غلط لجراءته في التَسَوُّر على الفنون لا سيما المنطق فإنهم زعموا أنه زلَّ هناك، وضل في سلوك المسالك، وخالف أرسطاطاليس واضع الفن مخالفة من لم يفهم غرضه، ولا ارتاض، ومال أولاً إلى النظر على رأي الشافعي، وناضل عن مذهبه حتى وسم به، فاستهدف بذلك لكثير من الفقهاء، وعيب بالشذوذ، ثم عدل إلى قول أصحاب الظاهر فنقحه، وجادل عنه، وثبت عليه إلى أن مات، وكان يحمل علمه هذا، ويجادل عنه من خالفه، على استرسال في طباعه ومَذَلٍ[1] بأسراره، واستناد إلى العهد الذي أخذه الله على العلماء ﴿**ليبيننه للناس ولا يكتمونه**﴾[2]. فلم يك يُلَطِّف صدعه بما

---

(١) مذل بسره، كنصر وعلم وكرم: أفشاه ومذلت نفسه بالشيء مذلاً: طابت وسمحت.

(٢) في قوله تعالى: ﴿**وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا** =

عنده بتعريض ولا بتدريج بل يصك به من عارضه صك الجندلِ [١]، وينشِقَه إنشاقَ الخردلِ، فتنفر عنه القلوب، وتوقع به الندوب، حتى استهدف لفقهاء وقته، فتمالؤوا عليه، وأجمعوا على تضليله، وشنعوا عليه وحذروا سلاطينهم من فتنته ونهوا عوامهم من الدنو منه فطفق الملوك يقصونه عن قربهم، ويسيرونه عن بلادهم إلى أن انتهوا به منقطع أثره ببلدة من بادية كَبْلة، وهو في ذلك غير مرتدع ولا راجع، يبث علمه فيمن ينتابه من بادية بلدِه من عامة المقتبسين من أصاغر الطلبة، الذين لا يخشون فيه الملامة يحدثهم، ويفقههم، ويدارسهم، حتى كمل من مصنفاته وقر بعير، لم يعدُ أكثرها باديتَه لزهد الفقهاء فيها، حتى لأحرق بعضها بإشبيلية ومزقت علانية.

وكان مما يزيد في شنآنه تشيُّعه لأمراء بني أمية ماضيهم وباقيهم واعتقاده لصحة إمامتهم، حتى لنسب إلى النصب.

* إنصاف الذهبي لابن حزم :

قال الذهبي: قد أخذ المنطق ـ أبعده الله من علمٍ ـ عن:

= تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون﴾ [سورة آل عمران: آية ١٨٧] وقوله تعالى: ﴿لتبيننه للناس ولا تكتمونه﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بياء الغيب فيهما، والباقون بتاء الخطاب.

(١) الجندل: ما يقله الرجل من الحجارة.

محمد بن الحسن المذحجيّ، وأمعن فيه، فزلزله في أشياء، ولي أنا ميل إلى أبي محمد لمحبته في الحديث الصحيح، ومعرفته به وإن كنت لا أوافقه في كثير مما يقوله في الرجال والعلل، والمسائل البشعة في الأصول والفروع، وأقطع بخطئه في غير ما مسألة، ولكن لا أكفره، ولا أضلله وأرجو له العفو والمسامحة، وللمسلمين. وأخضع لفرط ذكائه وسعة علومه.

ولابن حزم:

منايَ من الدنيا علوم أبثُّها
وأنشرها في كل بادٍ وحاضر
دعاءٌ إلى القرآنِ والسنن التي
تناسى رجالٌ ذكرهَا في المحاضرِ
وألزمُ أطرافَ الثغورِ مجاهداً
إذا هيعةٌ ثارت فأولُ نافرِ
لألقَى حمامي مقبلاً غير مدبرٍ
بسُمْرِ العوالي والدقاقِ البواترِ
كفاحاً مع الكفارِ في حومةِ الوغى
وأكرمُ موتٍ للفتى قتلُ كافرِ
فياربِّ لا تجعل حِمامي بغيرِها
ولا تجعلنِّي من قطينِ المقابرِ

وشعره فحل كما ترى، وكان ينظم على البديه، ومن شعره:

أنـا الشمسُ في جو العلوم منـيرةً
ولـكـن عيبي أن مطلَعِـيَ الغـربُ
ولـو أنني من جانب الشرق طالـعٌ
لجد على ما ضاع من ذكريَ النهبُ
ولي نحـو أكنـاف العـراقِ صبـابة
ولا غرو أن يستـوحش الكِلفُ الصَّبُّ
فإن يُنـزل الـرحمنُ رحـلِيَ بينهم
فحينئـذٍ يبـدو التـأسفُ والكـربُ
هنـالـك يُدرَي أن للبُعـدِ قصـةً
وأن كسـادَ العلم آفتُـه القـربُ

قال ابن حزم في تراجم أبواب «صحيح» البخاري: منها ما هو مقصـور على آية، إذ لا يصح في الباب شيء غيرها، ومنها ما ينبه بتبويبه على أن في الباب حديثاً يجب الوقوف عليه، لكنه ليس من شرط ما ألف عليه كتـابـه، ومنهـا ما يبوب عليه، ويذكر نُبذة من حديث قد سطره في موضعٍ آخر، ومنها أبوبا تقع بلفظ حديث ليس من شرطه ويذكر في الباب ما هو في معناه.

وكلام ابن حزم كثير، ولو أخذت في إيراد طُرَفِه وما شذَّ به لطال الأمر.

تُوفي سنة ستٍّ وخمسين وأربع مئة. عمره إحدى وسبعين سنة وأشهر، رحمه الله.

* الغـــزالـــي (١)

الشيخ الإمام البحر، حجة الإسلام، أعجوبة الزمان، زين الدين أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي، الشافعي، الغزالي صاحب التصانيف، والذكاء المفرط.

* لله سر في خلقه:

تفقه ببلده أولاً، ثم تحول إلى نيسابور في مرافقة جماعة من الطلبة، فلازم إمام الحرمين، فبرع في الفقه في مدة قريبة، ومهر في الكلام، والجدل، حتى صار عين المناظرين، وأعاد للطلبة، وشرع في التصنيف. فما أعجب ذلك شيخه أبا المعالي، ولكنه مظهر للتبجح به ثم سار أبو حامد إلى المخيم السلطاني، فأقبل عليه نظام الملك الوزير وسر بوجوده، وناظر الكبار بحضرته، فانبهر له، وشاع أمره، فولاه النظام تدريس نظامية بغداد، فقدمها بعد الثمانين وأربع مئة، وسِنه نحو الثلاثين، وأخذ في تأليف الأصول، والفقه والكلام والحكمة، وأدخله سيلان ذهنه في مضايق الكلام، ومزالِّ الأقدام، ولله سر في خلقه.

---

(١) انظر ترجمة موجزة له في (نزهة الفضلاء) ص ٣٥٥.

* أحوال عايشها الغزالي:

وعظم جاه الرجل، وازدادت حشمته، بحيث إنه في دست أمير، وفي رتبة رئيس كبير، فأداه نظره في العلوم وممارسته لأفانين الزهديات إلى رفض الرئاسة، والإنابة إلى دار الخلود، والتأله، والإخلاص، وإصلاح النفس، فحج من وقته، وزار بيت المقدس، وصحب الفقيه نصر بن إبراهيم بدمشق، وأقام مدة، وألف كتابه «الإحياء». وراض نفسه وجاهدها، وطرد شيطان الرعونة، ولبس زي الأتقياء، ثم بعد سنوات سار إلى وطنه، لازماً لسنَنِه، حافظاً لوقته، مكبًّا على العلم.

ذكر هذا وأضعافه عبدالغافر في «السياق»، إلى أن قال: ولقد زرته مراراً، وما كنت أحدُس في نفسي مع ما عهدت عليه من الزَّعارة[1] والنظر إلى الناس بعين الاستخفاف كبرًا وخيلاء، واعتزازًا بما رزق من البسطة والنطق والذهن، أنه صار على الضدِّ، وتصفى عن تلك الكدورات، وكنت أظنه متلفعًا بجلباب التكلف، متنمساً بما صار إليه فتحققت بعد السبر والتنقير أن الأمر على خلاف المظنون، وأن الرجل أفاق بعد الجنون.

* إنصاف الغزالي:

قال أبو بكر بن العربي: شيخنا أبو حامد بَلَعَ الفلاسفة، وأراد

(١) شراسة وسوء خلق.

أن يتقيأهم، فما استطاع.

ومن معجم أبي علي الصدفي، تأليف القاضي عياض له، قال: والشيخ أبو حامد ذو الأنباءِ الشنيعة، والتصانيف العظيمة، غلا في طريقة التصوف وتجرد لنصر مذهبهم، وصار داعية في ذلك، وألف في تواليفه المشهورة، أخذ عليه فيها مواضع، وساءت به ظنون أمة، والله أعلم بسره، ونفذ أمر السلطان عندنا بالمغرب وفتوى الفقهاء بإحراقها والبعد عنها، فامتثل ذلك.

قال الذهبي: **مازال العلماء يختلفون، ويتكلم العالم في العالم باجتهاده وكل منهم معذور مأجور، ومن عاند أو خرق الإجماع، فهو مأزور، وإلى الله ترجع الأمور.**

* التحذير من أخطاء الغزالي:

قال الذهبي: قد ألف الرجل في ذم الفلاسفة كتاب «التهافت»، وكشف عوارهم، ووافقهم في مواضع ظنًّا منه أن ذلك حق، أو موافق للملة، ولم يكن له علم بالآثار ولا خبرة بالسنن النبوية القاضيةِ على العقل، وحبب إليه إدمان النظر في كتاب «رسائل إخوان الصفا» وهو داء عضال وجرب مرد، وسمّ قتال، ولولا أن أبا حامد من كبار الأذكياء، وخيار المخلصين، لتلف. فالحذار الحذار من هذه الكتب، واهربوا بدينكم من شبه الأوائل، وإلا وقعتم في الحيرة، فمن رام النجاة والفوز فليلزم العبودية، وليدمن الاستغاثة بالله،

وليبتهل إلى مولاه في الثبات على الإسلام وأن يتوفى على إيمان الصحابة، وسادة التابعين، والله الموفق فبحسن قصد العالم يغفر له وينجو إن شاء الله.

* ضبط ألفاظ ومجازفات:

قال أبو عمرو بن الصلاح:

ففي تواليفه أشياء لم يرتضها أهل مذهبه من الشذوذ، منها قوله في المنطق: هو مقدمة العلوم كلها، ومن لا يحيط به، فلا ثقة له بمعلوم أصلاً. قال: فهذا مردود، إذ كل صحيح الذهن منطقي بالطبع، وكم من إمام ما رفع بالمنطق رأساً.

قال الغزالي: وذهبت الصوفية إلى العلوم الإلهامية دون التعليمية، فيجلس فارغَ القلبِ مجموعَ الهمِّ يقول: الله الله الله، على الدوام، فليفرغ قلبه، ولا يشتغل بتلاوة ولا كتب حديث. قال: فإذا بلغ هذا الحد، التزم الخلوة في بيت مظلم، وتدثر بكسائه، فحينئذ يسمع نداء الحق: ﴿يا أيها المدثر﴾ و ﴿يا أيها المزمل﴾.

قال الذهبي: سيد الخلق إنما سمع ﴿يا أيها المدثر﴾ من جبريل عن الله وهذا الأحمق لم يسمع نداء الحق أبدًا، بل سمع شيطانًا أو سمع شيئاً لا حقيقة من طيش دماغه، والتوفيق في الاعتصام بالسنة والإجماع.

* من أحوال الغزالي :

قال ابن عساكر: حج أبو حامد وأقام بالشام نحوًا من عشر سنين وصنف، وأخذ نفسه بالمجاهدة، وكان مقامه بدمشق في المنارة الغربية من الجامع، سمع «صحيح البخاري» من أبي سهل الحفصي، وقدم دمشق في سنة تسع وثمانين.

قال أبو العباس أحمد الخطيبي: كنت في حلقة الغزالي، فقال: مات أبي، وخلف لي ولأخي مقدارًا يسيرًا ففني بحيث تعذَّر علينا القوت فصرنا إلى مدرسة نطلب الفقه، ليس المراد سوى تحصيل القوت، فكان تعلمنا لذلك، لا لله، فأبى أن يكون إلا لله.

* مجازفات لفظية :

ومما أخذ عليه قال: إن للقدر سرًّا نهينا عن إفشائه، فأي سر للقدر؟ فإن كان مدركاً بالنظر، وصل إليه ولابد، وإن كان مدركاً بالخبر فما ثبت فيه شيء. وإن كان يدرك بالحال والعرفان، فهذه دعوى محضة فلعله عنى بإفشائه أن نعمق في القدر، ونبحث فيه.

قال أبو حامد: اعلم أنَّ الدين شطران: أحدهما ترك المناهي، والآخر فعل الطاعات، وترك المناهي هو الأشد، والطاعات يقدر عليها كل أحد، وترك الشهوات لا يقدر عليها إلا الصديقون، ولذلك قال ﷺ: «**المهاجر من هجر السوء والمجاهد من جاهد هواه**».

* ليس من شرط العالم أنه لا يخطىء

وقال أبو عامر العبدري: سمعت أبا نصر أحمد بن محمد بن عبدالقادر الطوسي يحلف بالله أنه أبصر في نومه كأنَّه ينظر في كتب الغزالي رحمه الله، فإذا هي كلها تصاوير.

قال الذهبي: الغزالي إمام كبير، وما من شرط العالم أنه لا يخطىء.

* كلام العلماء فيه:

وقال محمد بن الوليد الطُّرطوشي في رسالة له إلى ابن مظفر: فأما ما ذكرت من أبي حامد، فقد رأيته، وكلمته، فرأيته جليلاً من أهل العلم، واجتمع فيه العقل والفهم، ومارس العلوم طول عمره، وكان على ذلك معظم زمانه، ثم بدا له عن طريق العلماء، ودخل في غُمار العمال، ثم تصوف، وهجر العلوم وأهلها، ودخل في علوم الخواطر وأرباب القلوب، ووساوس الشيطان، ثم شابها بآراء الفلاسفة، ورموز الحلاج، وجعل يطعن على الفقهاء والمتكلمين، ولقد كاد أن ينسلخ من الدين، فلما عمل «الإحياء» عمد يتكلم في علوم الأحوال، ومرامز الصوفية، وكان غير أنيس بها، ولا خبير بمعرفتها، فسقط على أم رأسه وشحن كتابه بالموضوعات.

* نقد كتاب الإحياء:

قال الذهبي: أمَّا «الإحياء» ففيه من الأحاديث الباطلة جملة،

وفيه خير كثير لولا ما فيه من آداب ورسوم وزهد من طرائق الحكماء ومنحرفي الصوفية، نسأل الله علمًا نافعًا، تدري ما العلم النافع؟

*** العلم النافع:**

هو ما نزل به القرآن، وفسره الرسول ﷺ قولاً وفعلاً، ولم يأت نهي عنه، قال عليه السلام: «**من رغب عن سنتي، فليس مني**» فعليك يا أخي بتدبر كتاب الله وبإدمان النظر في «الصحيحين» وسنن النسائي، ورياض النواوي وأذكاره تفلح وتنجح، وإياك وآراء عباد الفلاسفة، ووظائف أهل الرياضيات وجوع الرهبان، وخطاب طيش رؤوس أصحاب الخلوات، فكل الخير في متابعة الحنيفية السمحة، فواغوثاه بالله، اللهم اهدنا إلى صراطك المستقيم.

قال أبو الفرج ابن الجوزي: صنف أبو حامد «الإحياء» وملأه بالأحاديث الباطلة، ولم يعلم بطلانها، وتكلم على الكشف وخرج عن قانون الفقه، وقال: إن المراد بالكوكب والقمر والشمس اللواتي رآهن إبراهيم، أنوارٌ هي حجب الله عز وجل، ولم يرد هذه المعروفات وهذا من جنس كلام الباطنية، وقد رد ابن الجوزي على أبي حامد في كتاب «الإحياء» وبين خطأه في مجلدات، سماه كتاب «الأحياء».

ولأبي الحسن ابن سكر رد على الغزالي في مجلد سماه: «إحياء ميت الأحياء في الرد على كتاب الإحياء».

*** المخالفة من سنن حياة الناس :**

قال الذهبي : مازال الأئمة يخالف بعضهم بعضاً، ويرد هذا على هذا ولسنا ممن يذم العالم بالهوى والجهل.

توفي سنة خمس وخمسمائة، وله خمس وخمسون سنة، ودفن بمقبرة الطابران قصبة بلاد طوس، وقولهم : الغزَّالي، والعطَّاري، والخبَّازي، نسبة إلى الصنائع بلسان العجم بجمع ياء النسبة والصيغة.

أبو الثناء محمود الفرضي، قال : حدثنا تاج الإسلام ابن خميس قال لي الغزالي : الناس يقولون لي الغزَّالي، ولست الغزَّالي، وإنما أنا الغَزَالي منسوب إلى قرية يقال لها : غزالة، أو كما قال.

*** الكمال عزيز :**

رحم الله الإمام أبا حامد، فأين مثله في علومه وفضائله، ولكن لا ندعي عصمته من الغلط والخطأ، ولا تقليدَ في الأصول.

وفي ختام هذا المطاف.. وبعد تعلم الإنصاف ومعرفة أهميته وضرورته في جمع الصف المسلم على ما يرضي الرب..

ليسع كل مسلم لتحقيق الإنصاف في كل شؤون حياته..

إنصاف الرب ـ عز وجل ـ بحسن عبادته وحمده وشكره واتباع نهجه.

وإنصاف المصطفى ﷺ بالتأسي به في كل صغيرة وكبيرة وحسن اتباعه.

وإنصاف صحابته ومن تبعهم بالمحبة الصادقة بلا غلو والذب عنهم.

وإنصاف جميع المسلمين وخاصة علمائهم ودعاتهم وجماعات الدعوة بالدعاء لهم، والحرص على الائتلاف معهم والدفاع عنهم، وعدم الغلو والتعصب لهم، وعدم إسقاطهم لهفوات بدرت منهم مع الحذر من مخالفاتهم فلا نقلدهم فيها.

وإنصاف نفسك، فلا تظلمها بمخالفة شرع الله ونهج نبيه ﷺ وإعطائها فوق حقها أو هضم بعض حقوقها.

ولننصف الدعوة المعاصرة ورجالها ونشكر لهم حسن صنيعهم ولا نظلم الدعوة باتهامها بالتقصير الكامل أو الفشل الذريع. ولنذكر محاسنها وفضائلها على المعاصرين والخطوات الجبارة العظيمة التي قطعتها في طريق الإصلاح بصبر وجلد، مع الاعتراف بالخطأ هنا والتقصير هناك والانحرافات التي لا تخلو عنها طائفة أو جماعة.

ولنسع جميعاً جاهدين أن نبرأ إلى الله ممن عادى وليًّا من أولياء الله ودعاته لهوىً أو حسد وأن نصلح ذات البين ونؤلف بين قلوبنا ولا نتبع المتعصب المتحيز لطائفته بالحق والباطل الظالم لإخوانه الآخرين الذين قد تعلو مراتبهم في ميزان الإنصاف الشرعي.

وليدع كل مسلم بلا كلل في الأوقات والأحوال التي يرجى فيها إجابة الدعوة لإخوانه جميعاً بالتآلف والتآثر والتآزر والاجتماع، وعدم التدابر والتحاسد، وأن يريهم الله الحق حقًا ويرزقهم اتباعه ويريهم الباطل باطلاً ويرزقهم اجتنابه، وأن ييسر لهم الاعتصام بحبل الله جميعاً، وعدم التفرق.

قال تعالى: ﴿**ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم**﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١٠٥].

ولنتذكر نصرة الله ليوسف عليه السلام في تلك الساعة العظيمة التي اندحر فيها الشيطان. وحقق الله الفلاح والسرور لآل يعقوب عليه السلام بعد حسد وطول افتراق عسى الله أن يعجل نصره وتمكينه لأهل الخير والصلاح ولن يكون ذلك إلا بالتعاون والتآلف والإنصاف بين الدعاة والعلماء والطوائف الإسلامية جميعاً.

قال تعالى في سورة يوسف: ﴿**قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبَنا إنا كنا خاطئين. قال سوف أستغفرُ لكم ربي إنه هو الغفورُ الرحيمُ. فلما دخلوا على يوسُفَ آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مِصْرَ إن شاءَ الله آمنين. ورفع أبويهِ على العرش وخروا له سُجَّداً وقال يا أبتِ هذا**

تأويلُ رُؤيايَ من قبل قد جعلها ربي حقًّا وقد أحسنَ بي إذ أخرجني من السجنِ وجاء بكم من البَدْوِ من بعد أن نزغَ الشيطانُ بيني وبين إخوتي إن ربي لطيفٌ لما يشاءُ إنه هو العليمُ الحكيمُ. رب قد آتيتني من الملكِ وعلمتني من تأويلِ الأحاديثِ فاطرَ السماواتِ والأرضِ أنت وليِّي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾ [سورة يوسف، الآيات من: ٩٧-١٠١].

وأكثر من دعاء الله تعالى يا من فسحتَ صدرك وجُدت بالحق والإنصاف والإكرام لإخوانك الآخرين بما قال تعالى بعد قوله: ﴿ومن يوق شحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون. والذين جآءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلًّا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم﴾ [سورة الحشر، آية ٩، ١٠].

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين.

وكتبه

عبيد بن أبي نفيع الشعبي

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة
مقدمـــة	٧
فسحة صدور أهل الإنصاف حلاوة الإيمان	٢٩
تفاوت مراتب الرجال	٧٣
كلام الأقران بعضهم في بعض	١٠٣
من نواقض الإنصاف	١١٥
إنصاف من تلبس ببدعة	١٤٦
إنصاف علماء أخطأوا في غير العقيدة	١٧٧
عجائب وغرائب في سير الرجال	١٨٨
إنصاف الكتب ومؤلفيها	١٩١